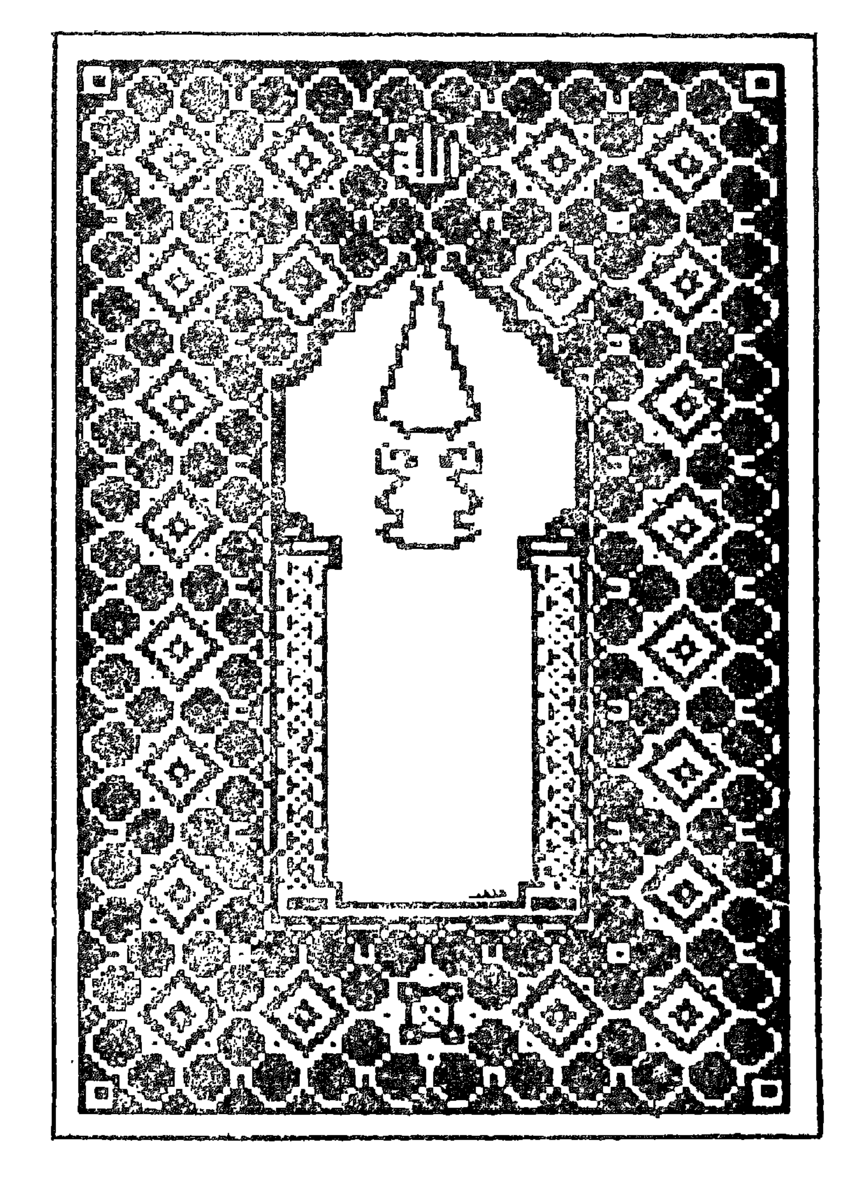
المعاملات بين الناس في الإسلام





دكتور عز الدين فراج

استاذ بجامعة القاهرة

المعاملات بين الناس في الاسلام

والمعاملات المالية والتجارية

دكتور عز الدين فراج

أستاذ بجامعة القاهرة

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربي

مقدمة

من الضرورى أن نعرف الشباب المسلم بتعاليم دينهم ، وما يرتبط منهـا بحياتهم اليومية ومعاملة من حولهم من الناس ، على أساس من الايمان والتعاون والمودة والحب والثقة .

لهذا اخترت فى هذا الكتاب موضوع « المعاملات بين الناس فى الإسلام » تناولت فيه بر الأبناء بالآباء ومعاملة الآباء للأبناء ، وحسن معاملة الجار لجاره والحاكم لمحكومه والسيد لعامله .

وتناولت فيه أيضا حسن معاملة المسلم لأخيـه المسلم وغير المسلم ، وحسن معاملة الإسلام للمرأة ، وعطف الإنسان على الحيوان .

وفى أبواب أخرى تناولت أثر الكلمة الطيبة وبشاشة الوجه واحترام الصغير للكبير وعطف الكبير على الصغير ، وأثر ذلك كله فى خلق المودة والأخوة بين الناس .

وتناولت أيضاً فى هذا الكتاب علاقة البائع والمشترى القائمة على الأمانة واحترام العقود والعهود ، موضحا كيف طالب الإسلام البائع بعدم احتكار السلع وخزنها وعدم غشها ، ودقة الكيل والميزان .

وتناولت أيضا كيف طالب الإسلام حماية المال العـام والخاص ، لتنظيم الحياة الاجتماعية والاقتصادية ، وكيف رفض الرشوة وحاربها .

هذا هو دستور الإسلام فى المعاملات بين الناس فى الحيـاة اليومية ، فاعملوا به واحرصوا عليه . . . . فهو طريق العـدل والتعاون والإخاء والثقـة الذى يحقق الراحة والطمأنينة والسـعادة لجميع الناس ، فى كل زمان ومكان .

دكتور عز الدين فراج

مُعَامَلَةُ الأَبْنَاءِ لِلآبَاءِ

قال اللهُ تعالى فى كتابِهِ الكريم : « وَقَضَى(١) ربُّكَ أَلَّا تَعبُدوا إِلَّا إِيَّاهُ ، وَبِالوَالِدَيْنِ إِحساناً ، إِمَّا يَبلُغَنَّ عِندَكَ الكِبَرَ أَحَدُهما أَو كِلاهُما ، فَلا تَقُلْ لهما « أُفٍّ » (٢) ولاتَنْهَرْهُما (٣) ، وقُلْ لهما قَولًا كَرِيما ، واخْفِضْ لهما جَنَاحَ الذُّلِّ من الرحمةِ(٤) ، وقُلْ رَبِّ ارْحَمهُما كما رَبَّيَانِى صغيرا » .

أكد الله تعالى فى هاتين الآيتين ضرورة البر بالوالدين والإحسان إليهما ، ومهما حاولنا أن نعدد مآثرهما على ولدهما ، وما لقياه من متاعب وشدائد فى تربيته وعلاجه والإنفاق عليه ، فلن نستطيع أن نحصى تلك المآثر والأفضال .

كما رسم — سبحانه وتعالى — طريقة من طرق البر والإحسان بالوالدين ، فنهانا عن أن نقول لهما « أف » لأن معناها أنك تضجر منهما ، وتتألم من خدمتهما ، والواجب علينا أن نترفق بهما ، ونقابلهما بوجه بشوش دائما .

فإذا كنت منهيا عن أن توجه إليهما كلمة « أف » فلا شك أنك تكون منهيا نهيا أشد وأقوى ، عما هو أعظم وأقسى منها قولا أو فعلا .

ثم خص الله سبحانه وتعالى نوعا من الخطأ الذى هو أقبح من التأفف ، وهو نهر الوالدين وزجرهما بالقول الغليظ ، وأمر الأبناء بالقول الحسن الذى يقضى به حسن الأدب وتحتمه الرعاية والمجاملة للوالدين .

الآيتان ٢٣ ، ٢٤ من سورة الإسراء .

---

(١) قضى : حكم .

(٢) أف : كلمة تدل على الضجر وعدم الرضا .

(٣) تنهر : تزجر : تعنف . . . أى لا تشتد فى معاملتهما .

(٤) اخفض لهما جناح الذل من الرحمة : كن رحيما بهما ومطيعا لهما .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : « سألت النبي صلى الله عليه وسلم : أى الأعمال أحب إلى الله ؟ قال : الصلاة على وقتها . قلت : ثم أى ؟ قال : بر الوالدين . قلت : ثم أى : قال الجهاد فى سبيل الله » .

(البخارى ومسلم)

وعبد الله بن مسعود من أجلاء الصحابة يسأل الرسول الكريم عن أحب الأعمال إلى الله ، فيجيبه بأن خير عمل يقربه إلى مولاه هو الصلاة على وقتها ، أى الصلاة فى أول وقتها ، والصلاة كما عرفت عنصر أساسى فى بناء الإسلام ، والمبادرة إليها والإسراع إلى أدائها فى أول وقتها أفضل عند الله من سائر الأعمال الأخرى ، وكيف لا وفيها تعود النظام واحترام المواعيد .

ثم سأله عن العمل الذى يلى ذلك فى المرتبة فيقول له الرسول :

بر الوالدين بطاعتهما وحسن معاملتهما والدعاء لهما بالرحمة والمغفرة « وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا » .

وتقديرا لفضل الأب والأم جعل النبي صلى الله عليه وسلم السعى عليهما مفضلا على الجهاد فى سبيل الله ، ولم يأذن لراغب الجهاد إلا بعد استئذان أبويه .

وقد أيد الله سبحانه وتعالى هذا القول كله فى سورة لقمان حيث قال :

« وَوَصَّيْنا الإنسانَ بوالِدَيْهِ ، حَمَلَتْهُ أُمُّه وَهْنا على وَهْنٍ ، وفِصالُه فى عَامَيْنِ ، أَن اشْكُر لِى وَلوالِدَيْكَ إلىَّ المصيرُ » . ؟

* * *

والنبي الكريم صلى الله عليه وسلم يزيد هذا القول تأكيداً وتفسيراً وتوضيحاً ، حين جاءه فتى يشكو أباه قائلا :

لقد أخذ أبى مالى :

فصاله : فطامه .

ولما سأل الرسول أباه قال له :

سله يارسول الله ، هل أنفقه على إحدى عماته وخالاته أو على نفسى ؟

عند ذلك أخذ النبي صلى الله عليه وسلم بتلابيب هـذا الفتى وسلمه إلى أبيه قائلا :

أنت ومالك لأبيك .

صدق رسول الله ، وهل كان الابن إلا ثمرة من ثمرات الأب ؟ أفلا يذكر هذا الابن العاق أن أباه احتمل كثيرا من المتاعب فى سبيل تربيته ، وأن المال الذى يشكوه من أجله ثمرة من ثمراته ؟ وكيف يمكن له أن يجمعه ولو لم ينل قسطا من رعايته وتوجيهه ؟ ! ألا يذكر أنه كان يؤثره على نفسه صغيرا ، ويتمنى له النجاح والفوز كبيرا ، ويبذل كل ما فى وسعه ليخرجه أحسن إنسان ؟

لقد لقنه الرسول الكريم درسا فى الوفاء لأبيه ، فكان درسا لكل ابن يجب أن يعيه ليقدر حق أبيه عليه .

وقد وصف شاعر عربى مبلغ استياء الأب من مثل هذا الابن العاق فقال :

غدوتك مولودا وعلتك يافعـاً
تعل(١) بمـا أحنو عليك وتنهـل

إذا ليلة نابتك بالسقم لم أبت
لسقمك إلا سـاهراً أتململ(٢)

فلما بلغت السن والغاية التى
إليهـا مدى ما كنت فيه أؤمل

(١) يعل « علل بعد نهل » والنهل هو الشرب الأول كفيتك معاشك ، وأنفقت عليك

(٢) أتململ : أضطرب وأتوجع لا أستقر من الوجع

جعلت جزائى غلظة وفظاظـة
كأنك أنت المنعـم المتفضـل
فليتك إذ لم ترع حق أبوتى
فعلت كما الجار المجاور يفعـل

أيها الابن :

يبكر التاجر فى تجارته إلى دكانه ، ويقضى فيه كل نهاره مجـدا فى ترويج بضاعته .

ويتقن الصانع صناعته ويتعب نفسه لينافس غيره ، والزارع يقاسى الحر اللافح والبرد القارس فى حقله ؛ وهو يحرث الأرض ويرويها ويحصدها ، والصياد يقضى ليله فى البحار ، وعلى سواحل الأنهار ليصيد وقد يتعرض لبرد الشتاء وعواصفه ، إن سألت كل هؤلاء . . . لماذا يفعلون كل ذلك ؟ .. أجابوك على الفور :

كل ذلك من أجل أولادنا . . . أولادنا فلذة أكبادنا ورياحين نفوسنا .

* * *

وعن أبى هريرة رضى الله عنه : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله ؛ من أحق الناس بحسن صحابتى ؟

قال أمك . قال : ثم من ؟ قال أمك . قال : ثم من قال أمك .

قال : ثم من ؟ قال : أبوك .

أمك هى التى حملتك جنينا فأصابها الضعف ، فإذا جاء يوم ميلادك وضعتك ثم أرضعتك بلبنها ، وسهرت على راحتك ، تعمل على مصلحتك ، لذا كانت منزلتها فوق منزلة الأب مع أنهما شريكان فى تربيتك ، فالأب يسعى ويكدح فى سبيل الحصول على المال الذى ينفقـه على تربيتك ، وهو الذى يرعاك ويتحسس حالك ليصلح

منها ما فسد ، ويقوم منها ما اعوج ، والأم بحنانها وعطفها ترعاك ليــلا ونهارا لتصح وتسلم ، وتهنأ وتنعم .

وجاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : يارسول الله :

إن لى أماً أطعمها ، وأسقيها ، وأحملها لتقضى حاجتها ، فهل وفيت لها بحقها ؟

قال الرسول الكريم :

لا ... لأنها كانت تفعل لك أكثر من ذلك .

وحدث أن رجلا حضرته الوفاة فى عهد الرسول ، ولقنوه الشهادتين ، فلم ينطق بهما ، وعذب فى ذلك كثيراً ، ولما علم النبي بما حدث ، قال :

أنظروا لعل له أماً تكون عليه غاضبة .

فسألوها ، فقالت :

إنه كان يؤثر امرأته على ، وسألوها المغفرة والصفح عنه فلم تفعل ، وعندئذ هم الرسول بإحراقه ، ليستدر عطفها عليه ، فجزعت وغفرت له ، فنطق بالشهادتين .

لهذا ينبغى أن يبر الولد أمه وأباه ، وأن يجاملهما أحسن مجاملة ويعاملهما أرق معاملة ، فيطيع أوامرهما ، ويخاطبهما باللين ، ويرشدهما بالرفق ، ويعطيهما إذا طلبا ، ويساعدهما إذا احتاجا ، فقــد تعبا له من قبل ليستريح ، وسهرا لينام ، وكافحا ليعلماه وينفقا عليه .

• وعبر النبي صلى الله عليه وسلم عن عظم جرم عقوق الوالدين بحديثين :

« ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ الإشراك بالله وعقوق الوالدين » .

وقال فى ثانيهما :

« كل الذنوب يؤخر الله ما شاء منها إلى يوم القيامة إلا عقوق الوالدين فإن الله يعجله لصاحبه فى الحياة الدنيا قبل الممات . »

واحتراما للوالدين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .

« من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه »

قيل كيف يلعن الرجل والديه ؟

قال : يسب أبا الرجل فيسب أباه ، ويسب أمه فيسب أمه — عن عبد الله بن عمرو بن العاص .

على الأبناء أن يضعوا فى أذهانهم دائما الحقيقة المؤكدة : وهى حب الآباء وحرصهم على سعادة الأبناء . ومن هذا الكنز الغالى الذى لا يوجد إلا فى الآباء يصدر كل نصح وكل توجيه . فإذا ضاق الأبناء بنصيحة أو توجيه ، فليعلموا فى الحال أنهم ضد أنفسهم .

كم ضقنا ونحن صغار بنصائح الآباء وأوامرهم ، وأكرهنا على قبولها ، ثم ظهر لنا بعد ذلك أنه لولا إكراهنا عليها لضاع مستقبلنا .

فقسا ليزدجروا ومن يك حازما

فليقس أحيـــانا على من يرحم

* * *

وقال جل شأنه فى الحث على بر الوالدين بالإنفاق عليهما وبيان أن أفضل الصدقات وأعظم النفقات التى يتقرب بها العبد إلى ربه هى ما كانت للوالدين ، ثم لمن يلونهما ممن ذكرهم الله تعالى .

« يَسئَلُونَكَ ماذَا يُنْفِقُونَ قُلْ ماأَنْفَقتمْ مِن خيْرٍ فلِلْوالِدَينِ والأَقْرَبِين واليَتَامَى والمَساكينِ وابنِ السَّبِيلِ وما تَفْعَلوا منْ خَيْر فإنَّ الله بهِ عَليم »

ترشد هذه الآية الكريمة إلى أن أفضل شيء يتصدق به الإنسان ويفعله من البر والخير والصدقة هو ما كان للوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل وإلى من يعطونها . وقد بين الله ذلك عند ما سئل النبى صلى الله عليه وسلم كيف ينفقون أموالهم ، وعلى من يصرفونها ؟ فقال له : (قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل) أى أنفقوها واصرفوها فى هذه الوجوه وذلك لأن الوالدين هما السبب فى وجوده حتى أمكنه أن يكسب هذا المال فهما أولى من يصرف إليهم المال وأجدر بالإنفاق عليهما من كل من عداهما ثم من بعدهم الأقربون ، لأن الإنسان لا يمكنه أن يسع جميع الفقراء بصدقته وإحسانه ، فتقديم القرابة أولى من غيرهم ثم من بعدهم اليتامى ، لأنهم لا كسب لهم وليس لهم من يقوم بأودهم ، ويتكفل بمصالحهم ، فهم لذلك أولى بالإحسان إليهم بعد الوالدين والأقربين ، ثم من بعدهم المساكين الذين لا يجدون ما يقوم بكفايتهم فهم أولى بالتصدق بعد من ذكروا ، ثم من بعدهم ابن السبيل والمراد به المسافر الذى فرغ زاده وبينه وبين غرضه مسافة تحتاج إلى مساعدة فينفق عليه ما يبلغه إلى مقصده .

فانظر إلى هذا الترتيب العجيب فى بيان كيفية الإنفاق ، وما أحسن تعقيب ذلك بعبارة الترغيب والحث على الإنفاق بلطف ، وذلك من قوله (وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم) أى (فيجازيكم عليه أوفر الجزاء ، لأنه لا يظلم أحداً مثقال ذرة ، وإذا أنفق أحد منا على والديه ما أنفق ، وإذا بذل لهما ما استطاع من البر والإحسان ، فلا يتوهم أنه كافأهما على برهما به ، وإحسانهما إليـــه وشدة ما قاسياه فى صغره ، وتحملاه فى تربيته ورعايته ، والسهر عليه ليلا طويلا ، والعناية به فى كل لحظة ، والمحافظة على سلامته ، والحرص على ارضائه .

* * *

• من العقوق أن يحزنهم ويتسبب فى بكائهما وشتمهما :

عن على كرم الله وجهه قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أحزن والديه فقد عقهما » رواه ابن الخطيب وأخرج البخارى فى الأدب المفرد عن ابن عمر رضى الله عنهما « بكاء الوالدين من العقوق » وأخرجه البخارى أيضا فى الأدب عن زياد بن معراق عن طيسلة أنه سمع ابن عمر يقول : « بكاء الوالدين من العقوق والكبائر » .

معاملة الآباء للأبناء

فى الإسلام

عنى الإسلام بالأبناء منذ الطفولة ، فهى أول مدارج الحياة (١)، لأنه إذا ربى الطفل تربية خاطئة شب سيئ التفكير ، ردئ السلوك . وكثير من مشكلات الشباب ترجع أصلا إلى إهمال تربية الصغار . ولهذا ينادى الإسلام بالعناية بالطفل من أول الطريق . . من يوم ولادته .

قال النبى صلى الله عليه وسلم : حق الولد على والده أن يحسن اسمه ، ويحسن مرضعه ، ويحسن أدبه .

ومن المبادئ الإسلامية فى تربية الصغير ما أوصانا به نبينا الكريم . إذ نصحنا بأن نلاعبه سبعا ، ونعلمه سبعا ، ونؤاخيه(٢) سبعا .

فالصغير فى بداية عمره يحتاج إلى اللعب ، واللعب لهذا الصغير كالماء والهواء ، والأب والأم أحب الناس للطفل ، فإذا لعبا معه أحس بالسرور والبهجة ، ولسرور الطفل أثر كبير فى صحته .

وعندما يبلغ الطفل السابعة من عمره يشترك الوالد فى تعليمه وتوجيهه . . سواء أكان ذلك بنفسه إذا كان أهلا لذلك أم باختيار معلميه ؟ .

وعندما يبلغ الرابعة عشرة من عمره ، على الأب أن يصاحبه ويصادقه . أى يعاشره معاشرة الصديق أو الأخ ، حتى يستطيع توجيهه التوجيه المنشود .

---

(١) مدارج الحياة : مذاهبها ومسالكها والسلاليم التى يرتقى عليها

(٢) تؤاخيه : تعامله كأخ أو صديق

ما أصدق قول النبي صلى الله عليه وسلم حينما قال :

« لاعبه سبعا ... وعلمه سبعا ... وآخه سبعا » ولم يزد عن ذلك ، لأن بعد هذه السن ، يريد الشاب أن يشعر باستقلاله وشخصيته . وبعد هذه السن عليه هو نفسه أن يطلب الرأى والمشورة .

والإسلام يرى فى الصلاة طريق الفضائل ، ولهذا يرى أن نمرن الطفل عليها ، ونتشدد معه إذا أهملها ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : **« مروا أولادكم بالصلاة لسبع ، واضربوهم عليها لعشر ، وفرقوا بينهم فى المضاجع » .**

* * *

ومن قواعد التربية الإسلامية للصغار عدم الكذب . لقد أوصانا الرسول صلى الله عليه وسلم بألا نكذب أمام صغارنا حتى لا يألفوا الكذب ويتعودوه . يقول عبد الله ابن عامر : جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيتنا وأنا صبى صغير فذهبت لألعب فنادت أمى :

ـ يا عبد الله تعال حتى أعطيك .

فقال الرسول لها :

ـ وماذا أردت أن تعطيه ؟

ـ قالت :

تمرا

فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم :

ـ أما لو لم تفعلى لكتب عليك كذبة ، فكان فى ذلك دعوة للتربية عن طريق القدوة الحسنة . . . وهذا آخر ما توصل إليه رجال التربية .

ومن حق الصغير والصبى على والده الاهتمام به والشفقة عليه ، وأن يحادثه فى بشاشة وابتسامة .

---

(١) يألف : يعتاد

يقول أنس :

ما رأيت أحدا أرحم بالعيال من رسول الله صلى الله عليه وسلم . كان ابنه إبراهيم عند مرضعته كان يذهب إليه ، ويأخذه بين يديه ويقبله ثم يرجع . . . لقد رأيت إبراهيم وهو يموت بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم ، لقد دمعت عيناه وقال :

— تدمع العين ويحزن القلب ، ولا نقول إلا ما يرضى الله ، والله يا إبراهيم إنا عليك لمحزونون .

وكان دائما يضم ابنته فاطمة إلى صدره فى عطف وحنان .

ودخل الحسن على النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان يصلى ، فركب الحسن ظهره وهو ساجد ، فأبطأ فى سجوده حتى نزل ، فلما فرغ قال له بعض أصحابه (لقد أطلت سجودك) فقال : إن ابنى ارتحلنى فكرهت أن أعجله . وكان يقول للحسن والحسين « أنا جملكما .

ولقد نزع عمر الثقة من أحد ولاته حين كان عمر يقبل أولاده ، فقال أحد الولاة : إن لى عشرة أولاد ما قبلت واحدا منهم .

قال عمر : « يرحم الله من عباده الرحماء » ثم شطب اسمه من الولاة وقال : « إنه لم يرحم أولاده فكيف يرحم الرعية » ؟

وليس من حق الوالد أن يتسبب فى ضرر أولاده بأية صورة من الصور ، وألا يضيق بهم مخافة الفقـــر ، فإن الله تكفل بالأرزاق ، فقال « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق(١) نحن نرزقهم وإياكم ، إن قتلهم كان خطئا كبيرا » .

* * *

---

(١) إملاق : فقر

والإسلام يأبى أن يفرق الأب بين الأبناء .

كان أحد الصحابة يحب ولده النعمان ، فأراد أن يؤثره وحده بعطية ، ولـكن زوجته أبت إلا أن تشهد على ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلما ذكر الأب القصة للنبي صلى الله عليه وسلم . . قال له :

ــ أكلهم أعطيته مثلما أعطيت ولدك النعمان ؟

فأجاب الأب قائلا :

ــ لا

فقال النبي صلى الله عليه وسلم :

ــ لا تشهدنى على جور(١) .

ثم يقول « اتقوا الله واعدلوا بين أبنائكم » .

والتفرقة بين الأبناء تثير الشقاق والفرقة والعداوة بينهم ، وتمتــد حتى أحفادهم واحفاد احفادهم .

والتفرقة حتى بالكلمة تزرع الحقد بين الأخوة ، فماذا يكون الحال حين تـكون التفرقة بالمال .

كثيرا ما تهدمت أسر ، وتحول الأخوة إلى أعداء فى ساحات القضاء ، نتيجة لسوء تصرف الآباء وما فعلوه من تفرقة .

ولو فكر الآباء فى مستقبل الأبناء والأحفاد ، لأدركوا أن دوام التآلف والأخوة والحب بينهم ، خير من كل ثروة ومال .

أما عن وصايا الآباء وحق الأبناء فيها فنشير إلى ما حدث مع ســعد ابن أبى وقاص :

قال سعد :

مرضت مرضا قاربت فيه على الموت .

---

(١) جور : ظلم

فأتانى رسول الله صلى الله عليه وسلم يعودنى ، فقلت : يارسول الله ، إن لى مالا كثيراً ، وإنى أورث كلالة[١] ، أفأوصى بمالى كله ؟ قال : لا : قلت : فالشطر[٢] ؟ قال : لا . قلت : فالثلث . قال : « الثلث ، والثلث كثير ، إنك إن تدع ورثتك أغنياء خـير من أن تدعهم عالة يتـكففون[٣] الناس .

* * *

غضب معاوية رضى الله عنه على ولده يزيد فهجره ، فقال له الأحنف : يا أمير المؤمنين : أولادنا ثمار قلوبنا ، وعماد ظهورنا ، ونحن لهم سماء ظليلة ، وأرض ذليلة ، وبهم نصول على كل جليلة ، فإن غضبوا فأرضهم ، وإن سألوا فأعطهم ، وإن لم يسألوا فابتدرهم ، ولا تنظر إليهم شذرا فيملوا حياتك ، ويتمنوا وفاتك ، فرضى عنه ووصله .

---

(١) كلالة : ميت لا والد له ولا ولد ، والـكلالة أيضا بنو العم الأباعد

(٢) الشطر : النصف

(٣) يتكفف : يمد كفه يسأل الناس

حسن معاملة الجار

جارنا هو أقرب الناس لنا ، وهو الذى يعيش بجوارنا ومن حولنا ، يحيينا كل صباح عند اللقاء ؛ ويبتسم لنا كلما لاقيناه ، ويرجو لنا الصحة والخير والبقاء .

ذكره الله كثيرا فى آياته ووصانا به النبى صلى الله عليه وسلم فى أحاديثه فقال :

« من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ؛ ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت . »

والإحسان إلى الجار يكون بعمل ما تستطيع عمله من الخير معه : إن احتاج أعنته ، وإن مرض عدته ، وإن عدت عليه حوادث الأيام خففت آلامه ، وإن أصابه خير هنأته .

يجب أن تبتسم فى وجه جارك عند اللقاء ، وتسأل عنه عند الغياب ، وترشده إذا ضل ، وتنشر محاسنه ، وتستر عيوبه ، وإن مات تبعت جنازته ، ومنحت أولاده من بعده عطفك ورحمتك .

لقد ذهب النبى صلى الله عليه وسلم إلى ما هو أبعد من ذلك فقال .

« ما زال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه » أى أن جبريل الأمين أكثر من الوصية حتى ظن الرسول أنه سينزله منزلة الأقارب ، فيفرض له فى التركة كما فرض لهم .

وفى هذا الحديث يخبر النبى صلى الله عليه وسلم أن جبريل وصاه بالجار وصية مستمرة ؛ حتى ظن الرسول صلى الله عليه وسلم أن الجار صار له

ما لأفراد الأسرة والأقارب من حق الميراث ، وهذا يشعرنا بعظم منزلة الجار ، ويدفعنا إلى حسن معاملته ومنع الأذى عنه .

قال صلى الله عليه وسلم :

« والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، قيل : من يا رسول الله ؟

قال : الذى لا يأمن جاره بوائقه[1] » .

أى الذى يلحق بجاره ضررا فى نفسه أو عياله أو بيته .

وقد أوصى الله به ، فقال سبحانه وتعالى :

« واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وبالوالدين إحسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين ، والجار ذى القربى والجار الجنب .

فالواجب علينا إذن أن نحسن إلى جارنا قريبا كان أو بعيدا :

إذا استعان بنا أعناه .

وإذا طلب منا قرضا إقرضناه .

وإذا احتاج شيئا أعطيناه .

وإذا مرض عدناه .

وإذا جاءه خير هنأناه .

وإذا اصابته مصيبة واسيناه .

فأنت ترى أن الرسول عليه السلام أقسم أن من يمس جاره بسوء أو يلحق به الأذى يعد ناقص الإيمان .

---

(١) بوائقه : البوائق الشرور وأنواع الأذى : روى الحديث البخارى ومسلم وأحمد وغيرهما.

يجب ألا نرفع صوت المذياع بدرجة تزعج الجار المريض أو من يريد النوم والراحة أو من يريد الاستذكار . وعلينا ألا نقيم الأفراح وجارنا فى حزن ومأتم ، وألا نعتدى عليه بشتم أو إيذاء ، وألا نتدخل فى شئونه الخاصة ، أو نسيء إلى أولاده وأفراد أسرته .

وعلينا ألا نباهى بما عندنا من ثياب أو طعام أو نعم أمام جيراننا ، لأن ذلك يؤذى شعورهم أحيانا ، خصوصا إذا كانوا لا يملكون ما نملك .
وعلينا أن نساعد جيراننا إذا احتاجوا إلى مساعدتنا فى قضاء حوائجهم :

وفيما يلى قصص لما ينبغى أن يكون عليه حسن الجوار .

حسن الجوار

كان سعيد بن العاص يساعد جيرانه ، ويكرمهم ويعاونهم ، وذات يوم أراد جاره أن يبيع داره لحاجته إلى المال ، فقدر له المشترى مائة ألف درهم ، فقال صاحب الدار للمشترى :

— بيت جاره سعيد بن العاص يباع بهذا الثمن القليل ! ! لن أبيع هذه الدار ولا أترك جوار إنسان كريم ، يحب مساعدة الناس ، إن رآنى رحب بى ، وإن غبت سأل عنى ، وإن سألته أعطانى .

ولما بلغ سعيد بن العاص هذه القصة بعث إلى جاره بالثمن وأبقاه فى داره .

ويذكرنا حسن الجوار بقصة الإمام أبى حنيفة المعظم مع جاره .

كان الإمام أبو حنيفة يسهر الليالى فى العبادة وتلاوة القرآن وكان له جار يقلقه طول الليل ، ويزعجه ، ويتصور أنه البطل الذى أضاعه قومه ، ولم ينتفعوا ببطولته فى ميدان القتال ، فيغنى بصوت مرتفع فى قول الشاعر :

أضاعونى وأى فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر ؟

ثم يعاود هذا العبث والصياح فى كل ليلة ، فكان ذلك يفوت على أبى حنيفة خشوع الصلاة وتلاوة القرآن ، ومع هذا لم يؤنب أبو حنيفة جاره ، أو يعنفه على سوء تصرفه .

وذات ليلة لم يسمع الإمام أبو حنيفة صوته كما اعتاد أن يسمعه ، فسأل عنه : فقيل له .

قبض عليه الشرطة ، لأنه كان يصيح بالليل ، وأودعوه السجن .

فلما أصبح أبو حنيفة ذهب إلى الأمير ، وشفع فى جاره ، ولم يبرح إلا بعد أن أطلق الأمير سراحه .

فقال له أبو حنيفة :

أيها الرجل : هل أضعناك كما كنت تقول فى غنائك ؟ فخجل الرجل ، وقال لأبى حنيفة :

جزاك الله خيراً ؛ فقد حافظت على حقوق جارك ، ثم تاب ، فلم يعد إلى إزعاج جيرانه .

وهكذا نرى أن أبا حنيفة احتمل إيذاء جاره ، ثم أحسن إليه ، فاستطاع بحسن معاملته أن يهذب طباع جاره .

« أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » .

مُعَامَلة الزَّوجَةِ المُسْلِمَةِ لِزَوْجِهَا

بجانب حسن معاملة الإسلام للمرأة طالبها بحسن معاملتها لزوجها وطالبها أن تحسن معاشرته ، وأن تتعاون معه على جلب الخير ودفع الشر عنه ، وأن تعمل على إرضائه والإخلاص له ؛ بأن تبتسم له وتلاطفه ، ولا تحقر له رأيا ، وتسامحه إذا أخطأ .

ومن حسن معاشرة المرأة أن تصون عرضها وشرفها ، وأن تحافظ على كرامة زوجها ، وتبذل كل جهدها لراحته ، وأن توفر له الهدوء ليفكر وينتج خصوصا إذا كان يعمل بعمل ذهنى أو فكرى أو فنى ... مع العناية بأولادها العناية التى تحقق لهم تربية حسنة وثقافة واسعة .

وقد فرض الإسلام على الزوجة المسلمة الوفاء لزوجها ، لما له من أثر فى هدوء البيت واستقرار الحياة الزوجية ، فليس هناك ما يصون العشرة الزوجية مثل تبادل مشاعر الحب والود والاحترام . وبهذه المشاعر الطيبة يقدمان مثلا صالحا لأولادهما ، ويقدمان قدوة طيبة يسيرون عليها فيما بعد . أما العشرة الزوجية القائمة على النقاش والجدال المستمر فإنها تؤدى إلى تفكك الأسرة .

والزوجة المسلمة العاقلة تكتم أسرار زوجها ، فلا تطلع أحدا على عوراته ، مهما تكن قرابته ، بل تعمل على إخفائها وإصلاحها محافظة على العلاقة الزوجية وكرامة الأسرة . وهى التى تشاطر أسرتها الحزن والسرور ، وإذا أصيب بنقص دخلها صبرت وتحملت إلى يوم الفرج .

وفرض الإسلام على الزوجة المسلمة أن تحافظ على مال زوجها بحسن

التدبير والاعتدال فى النفقة ، مع عـــدم التصرف فى ماله إلا بعد إذنه والتفاهم معه .

قال عليه الصلاة والسلام :

« **لا يجوز لامرأة أن تمنح عطية إلا بإذن زوجها** » .

ومن مظاهر طاعة الزوجة المسلمة ، البقاء فى منزل الزوج ، فلا تخرج إلا بعد إذنه .

وقال أيضا : « أيما امرأة خرجت من بيتها بغير إذن زوجها كانت فى سخط الله تعالى حتى ترجع إلى بيتها أو يرضى عنها زوجها . »

ومن مظاهر الطاعة ألا تدخل أحدا بيته إلا بإذنه ، أجنبيا أو قريبا .

* * *

وكان من فرط إيمان المرأة المسلمة بالوفاء لزوجها وحقه عليها أنهـــا كانت دائما توصى ابنتها بذلك كلما زارتها فى بيتها . وفيما يلى « أمامة بنت الحارث » توصى بنتها فى ليلة زفافها :

أى بنية : الوصية لو تركت لفضل أدب تركتها لذلك منك ، ولكنها تذكرة الغافل ومعونة العاقل ، أى بنيـــة : إنك فارقت بيتك الذى منه خرجت ، وعشك الذى فيه درجت ، إلى وكر لم تعرفيه ، وقرين لم تألفيه ، فكونى له أمة ، يكن لك عبدا ، واحفظى له خصالا عشرا .

أما الأولى والثانية ، فاصحبيه بالقناعة ، وعاشريه بحسن السمع والطاعة . وأما الثالثة والرابعة : فالتفقد لموضع عينه وأنفه ، فلا تقع عينه منك على قبيح ، ولا يشم إلا أطيب ريح .

وأما الخامسة والسادسة : فالتفقد لوقت منامه وطعامه ، فإن الجوع ملهبة(١) ، وتنغيص النوم مغضبة(٢) .

---

(١) ملهبة : يسبب الهياج (٢) مغضبة : يسبب الغضب

وأما السابعة والثامنة : فالاحتراس بماله ، والإرعاء على حشمه وعياله ، وملاك الأمر فى المال حسن التقدير ، وفى العيال حسن التدبير .

وأما التاسعة والعاشرة : فلا تعصن له أمرا ، ولا تفشن له سرا ، فإنك لو خالفته أوغرت صدره[1] ، وإن أفشيت لم تأمنى غدره .

ثم إياك والفرح بين يديه إن كان مهتما ، والكآبة بين يديه إن كان فرحا ، فإن الخصلة الأولى من التقصير ، والثانية من التكدير ، وكونى أشد الناس له إعظاما يكن أشدهم لك إكراماً . واعلمى أنك لا تصلين إلى ما تحبين ، حتى تؤثرى رضاه على رضاك ، وهواه على هواك ، فيما أحببت وكرهت .

(١) أوغرت صدره : أثرت غيظه : هيجت غضبه .

معاملة المرأة واحترامها في الإسلام

كان تقدير الرجل للمرأة فى الجاهلية تقديرا محصوراً فى أوضاع خاصة ، تتصل كلها بالتقاليد والعاطفة والنعرات القبلية . كانوا ينظرون إلى أمهاتهم نظرة تقدير واحترام . وكانت المرأة كأم موضع إجلال وطاعة من كل بنيها ... ولكن المجتمع الجاهلى كان خلوا من نظرة تقدير شامل للمرأة فى كل حى وفى كل قبيلة ، اللهم إلا إذا استثنينا هذا الإجماع العام الذى يخلع على الأم المنجبة للرجال ثوباً من التقدير الخاص .

وفى الوقت نفسه كانت بعض القبائل تنظر إلى المرأة نظرة ضعف واحتقار ، إلى حد أنهم مارسوا عادة وأد البنات .

وبجانب هذه العادة المرذولة كانت بعض القبائل تمارس عادة مستهجنة وهى حرمان المرأة من الميراث .

وبالجملة فقد بقيت المرأة العربية فى الجاهلية بعيدة كل البعد عن مجالس الأدب والأدباء والعلم والعلماء وعن مضمار السياسة ؛ والاشتراك فى الإدارة والحكم ، وعن ميادين القتال والجهاد إلا نادرا .

* * *

ولما جاء نبى الإسلام بدعوته ورسالته المجيدة تبدل الحال غير الحال لقد وجدت المرأة فى هذا النبى درعاً حامية وسنداً قوياً ، يدافع عن حقوقها ويحمى حرياتها ، فإذا هى تشترك فى الجيوش المجاهدة ، وإذا هى تغشى مجالس الأدب والأدباء ، وإذا برأيها موضع الإجلال والتقدير عند الولاة والحكام والخلفاء .

جاء هذا النبي الكريم يقول للناس : **خياركم خياركم لنسائكم** .

وجاء يقول :

ما أكرم النساء إلا كريم ، ولا أهانهن إلا لئيم .

وجاء يقول :

المرأة راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها .

لقد نادى النبي بحق المرأة المتزوجة فى ممارسة حقوقها المدنية ، فلها أن تدبر بنفسها شئونها وممتلكاتها مستقلة بذلك عن زوجها متى أرادت .

وأجاز لها النبي الاشتغال بالتجارة والصناعة . وليس من حق الزوج منعها من ذلك ، خصوصا إذا كان الغرض مساعدته . وقد كانت تختار من الصناعات النسج والتطريز ، ومن التجارة السلع الخاصة بالنساء كانت « أسماء بنت مخرمة » تبيع العطور . وكان بالمدينة امرأة عطارة تسمى « حولاء بنت ثويب » .

وكذلك باشرت السيدات المتقدمات فى السن التجارة فى مختلف السلع ، فقد تقدمت « فيلة الأنمارية » إلى النبي صلى الله عليه وسلم تستفتيه فى أنها تساوم فى الشراء حتى تصل إلى الثمن الذى حددته فتشترى . وكذلك فى البيع . فنهاها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، موجها إياها إلى الشراء بالثمن الذى تريد الشراء به والبيع بالثمن الذى تحدده دون مساومة .

ووفدت « أسماء بنت يزيد الأنصارية » على النبي صلى الله عليه وسلم وهو بين أصحابه فقالت .

بأبي وأمي يا رسول الله ، أنا وافدة النساء إليك . واعلم — نفسى لك الفداء — أنه ما من امرأة كانت فى شرق أو غرب سمعت بمخرجى هـذا أو لم تسمع إلا وهى على مثل رأيي . . . إن الله بعثك إلى الرجال والنساء ،

فآمنا بك واتبعناك . ونحن معشر النساء محصورات ، مقصورات قواعد بيوتكم ، وحاملات أولادكم ، وأنكم معاشر الرجال فضلتم علينا بالجمع والجماعات وعيادة المرضى وشهود الجنائز والحج بعد الحج ، وأفضل من ذلك الجهاد فى سبيل الله ، وأن الرجل منكم إذا خرج حاجا أو معتمرا أو مرابطا حفظنا لكم أموالكم ، وغزلنا لكم أثوابكم ، وربينا لكم أولادكم ، أفلا نشارككم فى هذا الخير يا رسول الله ؟

فالتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم بوجهه إلى أصحابه وقال لهم هل سمعتم مقالة امرأة أحسن سؤالا عن دينها من هذا ؟ .

فقالوا :

لا ، يا رسول الله .

فقال صلى الله عليه وسلم .

انصرفى يا أسماء ، وأعلمى من وراءك من النساء : أن حسن تبعل(١) إحداكن لزوجها ، وطلبها لمرضاته ، واتباعها لموافقته ، يعدل كل ما ذكرت .

فانصرفت أسماء وهى تهلل وتكبر استبشاراً .

وقد عز على نساء العرب أن يمنح النبى الرجال وحدهم كل وقته فسألته أن يختصهن بيوم ، فأجابهن إلى طلبهن ، وحدد يوما لهن يجلس إليهن يرشد الحائرة ويجيب السائلة .

واستأذن عليه عمر بن الخطاب وهن بين يديه ، فابتدرن الحجاب(٢)، فلما دخل عمر ، تبسم الرسول صلى الله عليه . فقال عمر بأبى وأمى أنت يا رسول الله : ما يضحكك ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : رآك النساء فابتدرن الحجاب . فالتفت عمر إليهن وقال :

---

(١) تبعل : رعاية ومداعبة . (٢) ابتدرن الحجاب : أسرعن إلى الستر

يا عدوات أنفسهن ، تهبننى ولا تهبن رسول الله ؟

وقلن : أنت أغلظ من رسول الله .

ولما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم الخروج إلى غزوة خيبر ، تقدمت إليه السيدة « أم سنان الأسلمية » وقالت :

يا رســول الله ، أخرج معك أداوى المريض والجريح إن كانت به جراح .

فقال رسول الله : اخرجى على بركة الله ، فإن لك صواحب كلمننى ، وأذنت لهن .

* * *

أما حياته صلى الله عليه وسلم فى بيته وبين نسائه ، فقــد كانت المثل الأعلى فى المودة والوداعة ، وترك الكلفة ، وبذل المعونة ، واجتناب هجر الكلام ومره .

وسئلت عائشة : ماذا كان عمل النبى صلى الله عليه وسلم فى بيته ؟ فقالت كان فى مهنة أهله حتى يخرج إلى الصلاة ، تريد بذلك أنه كان يعاونهن ويعمل معهن .

وكان من التبسط ورفع الكلفة إلى حد أن يستبق هو وامرأته .

وكانت فاطمة بنت رسول الله تتولى الطحن والعجن على حين كان على رضى الله عنه ينزح الماء ويحتمله ويهيئه .

وقد اعترف المستشرق الفرنسى « أندريه سرفيه » بفضل هذا الرسول فى كتابه « الإسلام ونفسية المسلمين » فقال :

لا يتحدث هذا النبى عن المرأة إلا فى لطف وأدب . . . كان يجتهد

تهبننى : تخفننى   رفع الكلفة : الامتناع عن التكليف والتصنع

دائما فى تحسين حالها ورفع مستوى حياتها . لقـــد كان النساء قبله لا يرثن ، بل كن متاعا يورث لأقرب الرجال ، وكأنهن مال أو رقيق . وعندما جاء الرسول قلب هذه الأوضاع فحرر المرأة وأعطاها حق الأرث » ، ثم ختم كلمته قائلا :

« لقد حرر محمد المرأة العربية ، ومن أراد التحقق بعناية هذا النبى بالمرأة ، فليقرأ خطبته فى مكة التى أوصى فيها بالنساء خـــيرا ، وليقرأ أحاديثه المتباينة » .

ما أصدق هذا القول . . . وما أكثر دفاع النبي عن المرأة وحقوقها !

ألم يقل فى خطبته التى قالها فى حجة الوداع ؟ :

« إن لنسائكم عليكم حقا وإن لكم عليهن حقا ، لكم عليهن ألا يقرب فرشكم غيركم ، ولا يدخلن أحدا تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم ، ولا يأتين بفاحشة(١) ، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن فى المضـــاجع وتضربوهن ضربا غير مبرح(٢) ، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف . وإنما النساء عندكم عوان(٣) لا يملكن لأنفسهن شيئا ، أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، فاتقوا الله فى النساء واستوصوا بهن خيرا .

أليس هو القائل أيضا ؟

« يا بنى إذا دخلت على أهلك فســـلم ، وليكن سلامك بركة عليك وعلى أهلك » .

وعن ابن عباس « إنى لأتزين لامرأتى كما أحب أن تتزين لى » .

وعن عائشة رضى الله عنها ، أن فتاة قالت للنبى صلى الله عليه وسلم : **إن أبى زوجنى من ابن أخيه يرفع بى خسيسته(٤) وأنا كارهة . فأرسل**

---

(١) فاحشة : عمل منكر (٢) غير مبرح : غير مؤذ

(٣) عوان : أسيرات لمساعداتكم (٤) خسيسته : صغر شأنه

النبي إلى أبيها فجعل الأمر إليها . فقالت يا رسول الله إنى قد أجزت ما صنع أبى ولكن أردت أن أعلم النساء أن ليس للآباء من الأمر شىء .

* * *

ومن أعجب المصادفات أن يجتمع المؤتمرون فى أوربا فى زمن النبى فى سنة ٥٨٦ ميلادية لبحث : هل المرأة إنسان ؟ وبعد بحث ومناقشة وجدل قرر أنها إنسان ولكن خلقت لخدمة الرجل وحده . . . ولم يكد يصدر هذا القرار الجائر فى أوربا حتى نقضه محمد صلى الله عليه وسلم فى بلاد العرب إذ رفع صوته قائلا :

(إنما النساء شقائق الرجال) .

بل قال للرجال :

ألستم حريصين على دخول الجنة ؟ هذه الجنة التى تحرصون عليها هى تحت أقدام الأمهات ، وكل امرأه أم .

وبذلك علم العالم أجمع أن المرأة إنسان مهذب ، له من الحقوق ما للرجال من حقوق فى وقت كانت أوربة تنظر إلى المرأة نظرة سخرية واحتقار .

وفى القرن السابع الميلادى عقد مؤتمر عام فى روما بحث فيه المجتمعون شئون المرأة ، فقرر المؤتمر أنها كائن لا نفس له . . . وعلى هذا فليس لها الحق فى أن ترث الحياة الآخرة .

ووصفها هذا المؤتمر أيضا بأنها رجس كبير وفرض عليها ألا تأكل اللحم ، وألا تضحك وألا تتكلم ... ونادى بعضهم بوضع أقفال على فمها .

وفى هذا الوقت كانت المرأة العربية تأخذ طريقها نحو النور ، وتحتل مكانتها الرفيعة فى المجتمع العربى ، وتقف بجانب الرجال فى معترك القتال .

لقد قالت الربيع بنت معوذ .

« كنا نغزو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونسقى القوم ونخدمهم، ونرد القتلى والجرحى إلى المدينة » .

وعن أم عطيه الأنصارية قالت :

« غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبع غزوات أخلفهم فى رحالهم ، وأضع لهم الطعام ، وأداوى الحرحى » .

وعن أنس قال :

« كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يغزو ومعه أم سليم ونسوة معها يسقين الماء ويداوين الجرحى » .

فمن بعد هذا كله يكابر ولا يعترف لهذا النبى العظيم ، بأنه أول من نادى بتحرير المرأة ؟

وبعد هــذا كله لا يعد هــذا النبى الكريم منقذ المرأة من الذل والطغيان والعبودية ؟

ألا يحق بعد هذا كله أن يصف « أندريه سرفيه » نبينا الكريم بأنه محرر المرأة ومنقذها ؟

ألا يحق بعد هذا كله أن يصفه بأنه نصير المرأة ؟

ألا يحق بعد هذا كله لمسيو « ريفيل[1] » أن يقول بدوره ؟

« إننا لو رجعنا إلى زمن هذا النبى لما وجدنا عملا أفاد النساء أكثر مما فعله هذا الرسول ، فالنساء مدينات لنبيهن بأمور كثيرة ، رفعت مكانتهن بين الناس » .

وهذا أيضا هو ما دفع العالم الألمانى « دريسمان » أن يسجل قوله :

« لقد كانت دعوة محمد إلى تحرير المرأة السبب فى نهوض العرب

---

(١) كاتب فرنسى

وقيام مدنيتهم . . وعندما عاد أتباعه وسلبوا المرأة حقوقها وحريتها كان ذلك من عوامل ضعف واضمحلال قوتهم .

وقد كتبت جريدة المونيتور الفرنسية تصور احترام الإسلام ونبيــه للمرأة فتقول من مائة سنة مضت .

لقد أحدث الإسلام ونبيــه تغيبرا شاملا فى حياة المرأة فى المجتمع الإسلامى . . . فمنحها حقوقا واسعة تفوق فى جوهرها الحقوق التى منحناها للمرأة الفرنسية .

الإسلام وصلة الرحم

كل منا يود أن يعيش فى بسطة من العيش وسعة من الرزق ، وكل منا يود أن يستمتع بمتع الحياة ، ويطمع فى الوقت نفسه أن يكون له أثر مشرف بعد مماته ، وقد رسم النبي صلى الله عليه وسلم الطريق للوصول إلى هذا الهدف ، فعن أبي هريرة رضى الله عنه أنه قال :

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من سره أن يبسط له فى رزقه ، وأن ينسأ له[1] فى أثره[2] فليصل[3] رحمه » .

وهذا الحديث النبوى الشريف يهدينا إلى حقيقة خالدة ، وهى إذا أردنا أن نعيش مستمتعين بسعة فى الرزق فى حياتنا ، فعلينا أن نصل الأقارب ، بأن نتودد لهم بالزيارة ، ونزور مريضهم ، ونعطف على فقيرهم ، ونواسيهم أحزانهم ، ونقضى عنهم ديونهم إذا استطعنا ذلك ، ونساعد بكل ما فى مقدورنا ، إبقاء على صلة الرحم وابتغاء رضاء الله .

وبمثل هذه المعاملات الطيبة نشعر بحب الناس لنـــا ، كما نشعر براحة فى النفس . . . وفوق هـــذا كله نشعر برضاء الله . . . « ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً » .

كتب الله على نفسه أن يصل من وصل قرابته ، ووعد من يقطعها يقطعه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا يدخل الجنة قاطع » أى قاطع رحمه ، وقال تعالى : « إن تقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم ، ويغفر لكم » .

(١) ينسأ له : يؤجل له (٢) أثره : عمره وأجله

(٣) يصل رحمه : يحسن إلى أقربائه ولا يقطع ما بينه وبينهم من صلات

وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من سره أن يمد له فى عمره ويوسع له فى رزقه ، ويدفع عنه ميتة السوء ، فليتق الله ، وليصل رحمه » .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما ، عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مكتوب فى التوراة : من أحب أن يزاد فى عمره ، ويزاد فى رزقه فليصل رحمه »(١) .

ويروى عن عائشة رضى الله عنها قالت : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« أسرع الخير ثواباً البر وصلة الرحم ، وأسرع الشر عقوبة البغى وقطيعة الرحم »

ورحم الإنسان أقاربه ، وواجب عليه أن يطعمهم من جوع ، ويؤمنهم من خوف أو يقضى عنهم ديناً أو يفرج عنهم غما أو يقضى لهم ما يحتاجون إليه إن كانوا فى احتياج إلى ذلك ويتودد إليهم بالزيارة والهدايا والطيب من القول والبشاشة عند اللقاء والمبادرة بالسلام ، والمحافظة على فعل كل ما يجلب محبتهم إن كانوا أغنياء عن ذلك كله .

وصلة الرحم من أفضل الخصال وأجمل الخلال ، فبها يكثر التواصل والتوادد ، وتؤمن الغوائل ويزول التباغض والتحاسد وتلتئم القلوب ، وتغفر الذنوب ، وتصفو الضمائر ، وتحسن السرائر ، ولهذه الثمار اليانعة والفوائد النافعة حث الشرع الإسلامى عليها وبالغ فى التمسك بها ، حتى جعلها رسول الله صلى الله عليه وسلم سببا فى إدرار الرزق وسعته وفاتحة الخير وزيادته .

---

(١) يصل رحمه : يقوى صلات القرابة بالإحسان و البر والمودة .

ولعل حكمة حث الشرع عليها والتشديد فى أمرها والترغيب فيها والتحذير من قطعها ومجانبة ذلك جهد الاستطاعة أن أقارب الرجل هم أكثر الناس بعد أبويه نصرة له ورغبة فى الخير له ، وأشدهم شفقة عليه ، وأعظمهم محبة له . بهم يعلو بين الأنام قدره ، ويعظم فخره ، ويرتفع ذكره ، وهم أكثر الناس به اختلاطا فإذا قطعهم تنغص عيشه ، وكثر شره وقل خيره ، وهناك من الأقارب من يسيئون إليك فهل تكون بذلك فى حل فى عدم البر بهم والعطف عليهم ؟ . وهل يجوز لك فى هذه الحال أن تقابلهم بالمثل . ؟

لا ... فالإسلام يطلب التسامح . . إن ذلك لو تم لكان معناه التمادى فى الخطأ والعمل على ازدياد الخصام بين الأقارب .

ولذلك يوصينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن نحرص على البر بالأقارب والإحسان إليهم ودوام الصلة بهم ، حتى ولو اساءوا إلينا .

وقد تكون هذه المعاملة الحسنة دافعة لهم على تغيير معاملتهم له ، فيقلعون عن الاساءة إليه . . . ويقدرون خلقه وكرمه فيندفعون إلى حبه . وعندئذ يتحقق الهدف من قوله تعالى :

« ادفَعْ بِالَّتى هِى أَحْسنُ فَإِذَا الذى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ ولىٌّ حَمِيمٌ »

حُسْنُ المُعَامَلَة

بالكلمة الطيبة ، وبشاشة الوجه ، والتعاون والتراحم ،
واحترام الصغير للكبير ، وعطف الكبير على الصغير

تحدثنا فيما سبق عن حسن معاملة الأبناء للآباء ، وكيف يخلق فى الأسرة المحبة والترابط ، وعن حسن معاملة الجار لجيرانه ، وكيف يخلق المودة والطمأنينة بين أهل الحى الواحد ، وتحدثنا عن حسن سير معاملة الأغنياء لليتامى والمساكين وأبناء السبيل ، وكيف يخلق الترابط والتراحم بين طبقات الشعب الواحد .

والآن نتحدث عن المبادئ العامة التى نادى بها الإسلام لضمان حسن معاملة الناس جميعا ، وهى الكلمة الطيبة ، وبشاشة الوجه ، واحترام الصغير للكبير وعطف الكبير على الصغير ، والتعاون والتراحم بين كل الناس .

هذه هى الوسائل العامة التى يراها الإسلام كوسيلة لخلق مجتمع يسوده الحب والعطف وتظلله المودة ، لا بغضاء فيه ولا نفور .

أما أثر الكلمة الطيبة التى نادى بها الإسلام ، وجعلها أساساً لأحاديث المسلمين ومعاملاتهم فوصفها القرآن الكريم بقوله :

« أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا كَلِمَةً طيبةً (١) كَشَجَرةٍ طيبة ، أَصْلُها ثَابِتٌ وفَرعُها فى السَّمَاءِ ، تُؤْتِى أُكُلَها كُلَّ حِينٍ بإذنِ رَبِّها ،

---

(١) كلمة طيبة : كل ما يدل على الحق ويدعو الى الخير .

ويَضرِبُ اللهُ الأَمثالَ لِلنَّاسِ ، لَعلَّهم يَتذكَّرون . وَمَثَلُ كَلمةٍ خَبيثة (١) كشَجرةٍ خَبيثةٍ اجْتُثَّت (٢) مِن فَوق الأَرضِ مَالَها مِن قَرارٍ ، يُثَبِّتُ اللهُ الذين آمنوا بِالقَول الثَّابتِ فى الحياةِ الدُّنيَا وَفِى الآخِرَةِ ، ويُضلُّ اللهُ الظَّالِمين ، وَيفعَلُ اللهُ مَا يَشاءُ » .

• والمقصود بهذه الآية الكريمة أن للكلمة الطيبة تأثيراً كبيراً ، وفضلا عظيماً فكما أن الشجرة الطيبة نستظل بظلها ، ونستمتع بثمرها ، كذلك الكلمة الطيبة تريح النفس ، وتسعد القلب ، وتبعد النفور والخصام ، وتخلق الحب والوئام ، أما الكلمة القبيحة ، فهى تؤلم النفس ، وتؤذى القلب ، وتورث الخصومة والعداوة ، وتخلق النفور بين الناس ، لهذا كانت الكلمة القبيحة كالشجرة الخبيثة التى لا تثمر إلا ثماراً كريهة الطعم ، مرة المذاق . ومثل هذه الشجرة لا بد من اقتلاعها وما أسهل ذلك !

عليك بالكلمة الطيبة ، فبها تريح الناس وتسعدهم ، وبها يريحونك ويسعدونك ، وبها تخضع لك القلوب ، وتنحنى لك الرءوس ، وبها يلين لك الحديد .

وكلمة الحق كلمة طيبة تصان بها الحريات والحقوق ، وبها يسود العدل ، وتطمئن لها النفوس ، وتعم الراحة فى الصدور .

* * *

وأرادت الأساطير الهندية أن تصور قيمة الكلمة الطيبة والقول الحسن وفعلهما فى النفوس فقالت على لسان « براهما » وهو يقول لآلهة القوة :

— أنت أعنف من الرياح . . . وأشد قوة من هدير الأمواج . . فهل هناك ما هو أقوى منك يا آلهة القوة ؟

فأجابته قائلة :

— نعم . . . الكلمة الطيبة والقول الحسن أقوى منى وأكثر تأثيرا .

---

(١) كلمة خبيثة : كل كلمة ضارة كالدعوة إلى الفساد أو إيقاع الفتنة بين الناس .

(٢) اجتثت : اقتلعت عن آخرها .

« بالكلمة الطيبة تخضع لك الرءوس ، وتنحنى لك الهامات » . ليس هذا فحسب ، بل أرادت أن تقول إنك تستطيع بالقول الحسن أن تهزم كل قوى وتخضع كل جبار .

ومن الكلمة الطيبة ألا يجهر المؤمنون بالسوء من القول ، لهذا قال الله تعالى :

« لا يُحِبُّ اللهُ الجَهْرَ بالسُّوءِ من القَوْلِ إلا مَن ظُلِمَ ، وكان الله سَمِيعًا عليما » .

يحب الله من المؤمن أن يكون طاهر اللسان عفيف النطق ، لأن ذلك يدل على طهارة القلب وصفاء النية ، ويكره منه أن يلفظ السوء أو يشتم مخلوقا ، لأن ذلك يدل على خبث النفس وسوء الضمير .

ولا فرق فى ذلك بين أن يجهر بالقول الجارح أو بقوله سرا ، لما فيهما من المخالفة للأخلاق الفاضلة ، والصفات الشريفة . ونبه الله تعالى على الجهر دون السر ، لأنه أفحش وأشنع ، إذ ربما كان سبباً فى أن يقلده صغار العقول ، وضعاف النفوس ، ولأن الإنسان إذا تعود ترك الجهر أدى به ذلك إلى ترك السر .

• ومن الكلمة الطيبة أن يرد المؤمن عن عرض أخيه(١) . وفى هذا الصدد قال النبي صلى الله عليه وسلم : من رد عن عرض أخيه بالغيب(٢) رد الله عن وجه النار يوم القيامة » .

وجاء هذا الحديث الشريف إرشادا للناس إلى فضيلة من الفضائل العظيمة ، ونهيا لهم عن رذيلة من الرذائل وهى رذيلة الغيبة — وهى أن يذكر الإنسان أخاه بشىء يكرهه — ولو كان ذلك الشىء فيه فى الواقع — كأن يصفه بأنه قصير أو راسب فى الامتحان أو من أسرة فقيرة أو حقيرة

---

(١) عن عرض أخيه . العرض ما يفتخر به من طهارة وشرف .
(٢) الغيب . أى فى غياب أخيه .

او كان أبوه سجينا أو غير ذلك ممـــا يتأذى منه . فإذا كان مثل هذه الأوصاف محرما عنـــه فى دين الإسلام ، فما ظنك بغيره من الأوصاف الشديدة الآلام ، أو بالصفات السيئة تختلقها[1] اختلاقا ؟

لقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الغيبة ، لأن فيها أضرارا شديدة تسبب العداء بين الناس ، وتفكك ما بينهم من روابط المودة والصداقة ، بعد أن كانوا مرتبطين بصلات القرابات والأرحام التى أمر الله تعالى بها أن توصل .

وكما للكلمة الطيبة تأثير طيب ، كذلك بشاشة الوجه لها نفس التأثير ، ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم .

« إنكم لا تسعون الناس بأموالكم ، ولكن يسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق » .

ويريد النبى صلى الله عليه وسلم بهذا الحديث أنه يعلمنا أنه ليس فى الإمكان إرضاء جميع الناس ببذل المال لهم ، ولكن يمكن إرضاؤهم ببشاشة الوجه ورقة الحديث وحسن اللقاء .

* * *

احترام الصغير للكبير وعطف الكبير على الصغير

ومن الآداب التى يحث الإسلام على اتباعها فى معاملة الناس بعضهم لبعض ، لكى تقوى المودة بينهم أن يحترم الصغير الكبير ، ويعطف الكبير على الصغير ، لهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم .

« ما أكرم شاب شيخاً لسنه ، إلا قيض[2] الله تعالى له من يكرمه عند سنه »

---

(١) تختلق الشىء : تدعيه كذا من صنعنا .

(٢) قيض : هيأ وأرسل .

والرسول صلى الله عليه وسلم يدعونا إلى هذا اللون من السلوك والأخلاق الحميدة ، فيبين أن كل شاب يكرم شيخاً ضعيفاً لسنه وشيخوخته ، فالله — سبحانه وتعالى — يرده إليه ، فيهيئ له من يكرمه إذا كبرت سنه .

والإكرام ألوانه كثيرة ، وصوره مختلفة ، فإذا كنت جالساً فى مكان مزدحم ، ورأيت عجوزاً واقفاً فقمت من مكانك لتجلسه مكانك ، أو إذا شاهدت شيخاً يحمل حملا ثقيلا فساعدته على حمله ، أو عاونته على ركوب سيارة عامة ، أو عبور الطريق العام المزدحم ، كان كل ذلك — إن فعلته إكراماً منك لهؤلاء الشيوخ — موضع الثواب عند الله .

وهذا الحديث النبوى الشريف يدعونا بصفة عامة إلى إكرام من هو أكبر منا سناً ومساعدته ، ولو لم يكن شيخاً .

بجانب ذلك فإن هذا الحديث يدعو الكبير إلى العطف على الصغير ، بأن يبتسم له ويفرح بلقائه ، ولا ينهره ولا يقسو عليه ، وأن يوجهه وينصحه فى لين ، ويمنحه خبرته وتجاربه وعلمه فى عطف .

مثل هذه المعاملة بين الصغير والكبير تخلق بينهما المودة ، وتربطهما برباط الحب ، فلا نفور ولا كراهية .

* * *

وبجانب الكلمة الطيبة وبشاشة الوجه واحترام الصغير وعطف الكبير على الصغير نادى الإسلام فى معاملة الناس بعضهم لبعض بمبدأ التعاون والتراحم بين الناس جميعاً ، إذ ينبغى أن يرحم المؤمن أخاه المؤمن ، ويشفق عليه ، ويقف بجانبه فى وقت الشدة ، ويزوره فى داره ، ويعوده فى مرضه ، ويتقرب إليه بما تيسر من الهدايا ، ويتعهده بما يحتاج إليه ، ويدفع عنه الأذى ، ويحول بينه وبين الشر ، ويجب أن يشعر كل مؤمن بالألم الذى يحل بأخيه المؤمن ، ويسعى فى دفعه ما استطاع إلى ذلك سبيلا .

حسن معاملة اليتامى والمساكين وأبناء السبيل

نادى الإسلام بحسن معاملة اليتامى والمساكين وأبناء السبيل ، فقال الله سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز :

« واعْبُدُوا اللهَ ولاتُشركوا به شَيئا وبِالوَالِدَيْنِ إحساناً وبِذِى القُربَى واليَتَامَى والمسَاكينِ والجارِ ذِى القُرْبى والجَار الجُنُب » .

والله فى هذه الآية يطلب الإحسان لليتامى . . . واليتيم هو كل صغير أو صغيرة — لا أب له — ، وإن كان ذلك اليتيم غنيا — لكن المراد منه فى الآية الكريمة اليتيم المحتاج . يأمر الله الأغنياء أن ينفقوا عليه من فضل أموالهم ، شكرا لله تعالى ، واستزادة منهم لإحسانه عليهم ، وقد وعد الله سبحانه الشاكرين له فى قوله (لئن شكرتم لأزيدنكم) .

إن اليتيم المحتاج جدير بأن يكون موضع رعاية الأغنياء وعنايتهم بشأنه ، يقومون له بحاجاته ، وعلى تربيته وتعليمه ، وتثقيفه وتهذيبه ، حتى ينشأ نشأة حسنة ، ويروا فيه رجلا كاملا صالحا . وكل ولد عرضة لليتم والفاقة من بعد والديه . ولهذا قال الله تعالى : (وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم) .

واليتامى كثيرون ، ولو تركهم الأغنياء ، ومنعوا الإنفاق عليهم ، وفرطوا فى حسن تقويمهم لنشئوا على كثرتهم مفسدين ، لا عمل لهم إلا ارتكاب الأخطاء ، وانتهاك الحرمات ، والسعى فى الأرض فسادا . وليعلم الأغنياء أن اللوم حينذاك إنما هو واقع عليهم لا على اليتامى ، لأنهم هم الذين فرطوا فى توجيههم وتقويمهم . أما المساكين الذين ذكرتهم الآية

الـكريمة فهم الذين لا يجدون ما ينفقون ، فمنهم من لا يجد شيئا ، ومنهم من يجد القليل الذى لا يفى بحاجاته ، فلا يشبع بطنه ولا يستر جسمه .

فإذا بخل الأغنياء بالقليل من أموالهم ، وتركوا هؤلاء المساكين فريسة للفقر ، فإن الفقر قد يدفعهم إلى الجريمة ، فيستبيح لنفسه سرقة أموال الناس وقتل الأبرياء منهم . وكثيرا ما تألفت منهم العصابات ، تهاجم المدن والقرى ، تنهب الأموال ، وتقتل الأبرياء ، وتهتك الأعراض ، وتتهدد الآمنين ، وتشغل الشرطة عن التفرغ لحل مشكلات الناس .

لهذا كله كان الإحسان المنظم بشتى وسائله الاجتماعية والثقافيـــة والاقتصادية ضروريا ليصلح من شأنهم ، ويخفف من أضرارهم . أما ابن السبيل ، وهو المسافر الغريب الذى نفـــد ما كان معه من نفقة السفر ، وتعذر عليه الوصول إلى وطنه وأهله — فلكونه غريبا منقطعا عن أهله مجهولا — بين الله تعالى للسائلين ، أن فى مال القادرين حقا لهـــذا المسافر يجب أن يهدوه ، له عند الحاجة له ، حتى يستطيع العودة إلى أهله ، ويتمكن من الرجوع إلى وطنه .

إن حكمة الله سبحانه وتعالى من هذا التشريع واضحة جلية ، فإن الأغنياء إن لم يدركوا هذا المسافر المحتاج ، ولم يسعفوه بسد حاجته ، زادت حياته سوءا على سوء ، وانتهى أمره إلى ما لا يرضاه الله ولا الناس ، فتدفعه الحاجة إلى السرقة وسلب أموال الناس وأكلها بالباطل ، فيكون عرضة لغضب الله تعالى وسخطه ، مستحقا لعقاب السارقين والمفسدين معا .

وليس من المساكين الذين يستحقون الصدقة هذا الذى ادعى العجز ، واحترف التسول ، وأخذ يمر على الناس ليأخذ منهم بعض ما يحتاجه ، إن مثل هذا ينبغى أن يردع ولا يعطى ، ولأنه يخدع غيره ، وإنما المسكين هو الذى ينطبق عليه قول الرسول :

« ليس المسكين الذى يطوف على الناس ترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان ، ولكن المسكين الذى لا يجد غنى يغنيه ولا يفطن[1] له فيتصدق عليه ، ولا يقوم فيسأل الناس » .

وقال الله تعالى فى كتابه العزيز :

« إنما الصَّدقاتُ للفقراءِ ، والمَساكين ، والعَامِلين عليها ، والمُؤلَّفةِ قلوبُهم ، وفى الرِّقاب والغَارِمين ، وفى سبيلِ اللهِ وَابنِ السَّبيل ، فَريضةً من الله ، واللهُ عليمٌ حكيم » .

والزكاة التى فرضها الإسلام ليست تبرعا ، ولا تفضلا ، وإنما هى دين وحق للفقير على الغنى ، ووسيلة لدعم البناء الاجتماعى للمجتمع ، إذ تسد حاجة الفقراء ، وتؤمن المجتمع من خطرهم ، وتحصن أموال الأغنياء من عدوانهم ، قال تعالى .

« خُذ من أموالِهِم صَدقةً تُطهِّرُهم وتُزكِّيهِم بها » .

* * *

تحدثت عن اليتيم المحتاج ، أما اليتيم الذى له مال فقد نهى الإسلام عن القرب من ماله إلا بحق ، محافظة على مال هذا الصغير ، ولهذا قال الله تعالى فى كتابه الكريم :

« ولَا تقربُوا مالَ اليتيمِ إلا بالتى هى أَحسنُ حتى يَبلُغَ أَشُدَّه » .

فلا ينبغى للأوصياء[2] على اليتيم التصرف فى ماله إلا بالطريقة المثلى ، وهى حفظه وصيانته وتنميته ، على الوجه المشروع الذى أحله الله ، حتى يصل اليتيم

---

(١) لا يفطن له : لا ينتبه إليه لتعففه .

(٢) الوصى على اليتيم هو المشرف عليه وعلى ماله والموجه على لحياته بعد وفاة والده حتى يبلغ سن الرشد .

إلى تمام عقله ورشده ، وحينئذ يدفع إليه ماله ، يتصرف فيه ، والله يتولاه بتوفيقه ، والله سبحانه جعـل الحكام وأولى الأمر مشرفين على الأوصياء ، يسألونهم ويحاسبونهم فإذا رأوا تصرفهم محمودا حمدوهم ، وإذا رأوا غير ذلك عاملوهم بحكم الله فى الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما .

« إن الذين يـأَكُلون أَموالَ اليَتامَى ظُلما إنما يـأْكُلون فى بُطونِهم نارا ، وسيصْلَوْن سَعِيرا » .

* * *

وأمر الله تبارك وتعالى بحسن معاملة اليتيم فقال :

« فَأَما اليتيمَ فَلَا تَقْهَرْ ، وأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ، وأَما بنعةِ ربِّكَ فَحَدِّثْ » .

من هذه الآية الكريمة نجد وجوب حسن المعاملة ولطف المجاملة مع اليتيم الذى فقد أباه وهو صـغير ، والسائل الذى الجأته الحاجة والفاقة إلى ذل السؤال .

فحسن المعاملة مع اليتيم أن لا يقهره ويحزنه ، وأن لا يأخذ منه حقا من حقوقه ، وأن يكون كالأب الرحيم للولد البار فيسعى فى إنماء ماله إن كان له مال ، وفى تعليمه وتربيته ، ويحسن معاملته فلا يذله ولا يهينـه ولا ينهره .

ووصى الله جل شأنه بحسن معاملة اليتيم فى هذه الآية وفى آيات أخرى من القرآن الكريم ، لأن اليتيم الذى مات أبوه إذا لم يجد من يقوم بما كان يقوم به أبوه ، فلا شك ينشأ على الأخلاق الفاسدة والطباع الرذيلة ، فيكون بذلك شرا على المجتمع وعلى نفسه وأسرته .

وحسن معاملة السائل تكون إما بإجابة ما يتطلبه مع عدم التـكبر والفحش فى القول ، وإظهار الفضل عليه ، وإما برده بلين ولطف ، أو باعطائه ما طلب .

ولا يحسن بعاقل أن يتقلب فى نعمة من نعم الله ، ولا يرى من الشكر عليه أن يمنح أخاه المؤمن شيئا لا يؤثر فى ثروته .

قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وكلِمَةٌ طَيِّبَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبعها أذى

« مَثلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهمُ فى سَبِيلِ(١) اللهِ كَمَثل حبَّةٍ أَنْبَتَتْ سبْعَ سنَابِلَ ، فى كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ ،وَاللهُ يُضَاعِفُ(٢) لِمَنْ يَشَاءُ، وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ،الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فى سَبِيلِ اللهِ ، ثُمَّ لَا يُتبِعُون مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى (٣) ، لهُمْ أَجْرُهُم عِنْدَ رَبِّهِمْ ، وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ، وَلَا هُمْ يَحْزَنُون » .

« قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِن صَدَقَة يَتْبعُهَا أَذًى وَاللهُ غَنِى حَلِيم ، يـأَيُّهَا الَّذِينَ آمنُوا لَا تُبْطِلُوا صدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَى – كَالَّذِى يُنْفِق مَالَهُ رئَاءَ(٤) النَّاسِ ولَا يُؤْمِنُ باللهِ والْيومِ الآخرِ ،فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوانٍ(٥) عَلَيْهِ تُراب ، فَأَصَابَهُ وَابلٌ ، فَتَرَكَهُ صَلْدًا (٦) لَا يَقْدِرونَ عَلى شىءٍ مِمَّا كَسَبُوا(٧) ، واللهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ .

---

(١) فى سبيل الله : فى وجه الخير : لطلب مرضاة الله .

(٢) يضاعف = يزيد الثواب بما لا يحصى .

(٣) المن : أن يذكر النعمة لمن أحسن اليه متباهيا فخورا=تعداد الإحسان على المحسن اليه

(٤) رئاء الناس ، يرائى بها الناس فيظهر لهم أنه يريد وجه الله وانما قصد مدح الناس له أو شهرته بالصفات الجميلة .

(٥) صفوان : الصخر الأملس .

(٦) وابل : مطر شديد . صلدا : أملس يابسا لا شىء عليه من ذلك التراب .

(٧) لا يقدرون على شىء مما كسبوا : لا ينتفعون بشىء مما انفقوا ، لا ينالون به ثوابا .

وَمثَل الَّذِين يُنْفِقُون أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ وَتَثْبيتًا مِن أَنْفُسِهِمْ (١) كَمَثَلِ جَنَّة بِربْوَةٍ(٢)، أَصَابَهَا وابل(٣) ، فَآتتْ أُكُلَهَا(٤) ضعْفَيْنِ ، فَإِن لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَل(٥) وَاللهُ بمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » .

---

(١) تثبيتا من أنفسهم : تصديقا ويقينا بأن الله سيجزيهم على صدقاتهم خير الجزاء .

(٢) الربوة المكان المرتفع من الأرض .

(٣) وابل : [illegible]ار منهمر .

(٤) أكلها : [illegible]رها .

(٥) الطل : الرذاذ وهو المطر القليل .

معاملة المسلم لأخيه المسلم

رابطة الإسلام رابطة متينة قوية ، أقوى من رابطة الدم ، وأقوى من رابطة القبيلة ورابطة الوطن . هذه الرابطة القوية تفرض على المسلم واجبات يؤديها لأخيه المسلم ، فلا يتعدى على حقوقه ، ولا يتركه وحده وقت المحن والشدة ، ولا يحط من قدره ، ولا يقلل من شأنه ، ولا يسلبه ماله ، ولا يؤذى سمعه ، ولا يضر صحته .

وعلى كل مسلم أن يحافظ على دم أخيه المسلم ، فلا يقتله ، ولا يغدر به . قال تعالى :

ومن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّدًا ، فَجزاؤُه جَهَنَّم خَالِدًا فيهَا .

وعلى كل مسلم أن يحافظ على شرف أخيه المسلم ، لا يلوثه ولا يقذفه ، ولا يغتابه .

وعلى المسلم أن يبعد عن النفاق ، فلا يظهر الخير ، ويبطن الشر ، ولا يظهر الوفاء ويخفى العداوة .

وعلى كل مسلم أن يحافظ على مال أخيه المسلم ، لا يسرقه ولا يعرضه للضياع أو التلف أو الخسارة . لقد حرم الله أخذ مال الغير بالباطل .

* * *

ومن حسن معاملة المسلم لأخيه المسلم ألا يتحدث عن عيوب أخيه ، وينسى عيوبه ، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « **من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه** » .

وفى الأحاديث النبوية الشريفة التالية صورة لما تجب عليه معاملة المسلم لأخيه المسلم .

« المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه[1] ولا يخذله[2] ولا يحقره[3] ، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام : ماله ، ودمه ، وعرضه ، إن الله لا ينظر إلى صوركم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم ، التقوى ههنا ، التقوى ههنا . ويشير إلى صدره ، لا يبع بعضكم على بيع بعض ، وكونوا عباد الله إخوانا ، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال »

و قال النبي صلى الله عليه وسلم :

« طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس »

لا يحسن بمن أصيبت يده أو قدمه أن يشغل نفسه بإصابة غيره ، ويترك معالجة جسمه مما أصيب به ، كذلك لا يحسن ممن ابتليت نفسه بعيب من العيوب النفسية أن يغفل عنها ويهملها من المعالجة والمداواة ، ثم يشغل نفسه بعيوب غيره .

ابدأ بنفسك فانهها عن غيها

فإذا انتهت عنه فأنت حكيم

إن من يشغل نفسه بعيوب غيره ، لا يخلو من ثلاثة أغراض : فإما أن يكون غرضه الشماتة والمجاهرة بسروره بذلك ، وإما أن يقصد التشهير بمن يتحدث عنه ، وإما أن يدعي إظهار التحسر لما ابتلى به ، ومن البداهة أنه لا شيء من الأمور الثلاثة يصلح أن يكون عذرا مقبولا ، يبرر إهمال عيوب نفسه واشتغاله بعيوب غيره .

رحم الله مسلما أصلح أمور نفسه ، وترك عيوب الناس .

---

(١) لا يظلمه : لا ينقصه حقه . (٢) لا يخذله : لا يتخلى عنه وقت الشدة .
(٣) لا يحقره : لا يحط من قدره . (٤) بحسب امرىء من الشر : يكفيه من الشر .

ويأبى الإسلام أن يسخر المسلم ، من أخيه أو يحقره ، أو يناله بسوء

« يا أيُّها الَّذِين آمَنُوا لا يَسْخرْ قوْمٌ مِنْ قوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خيْرًا مِنهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تلْمِزُوا أنْفُسَكُمْ وَلَا تنَابَزُوا بالْأَلْقَاب بئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَان وَمَنْ لمْ يَتُبْ فأُولَئِك هُمُ الظَّالِمُون (١١) يَاأيُّها الَّذِين آمَنُوا اجْتنِبُوا كثِيرًا مِن الظَّنِّ إنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إثْمٌ وَلَاتَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا الله إنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ .

يدعونا الله فى آياته الكريمة بأن لا يسخر أحد بأحد ، ويستخف به ويستحقره ، ولا يعيب أحد على أحد بشيء يكرهه ، ولا يدعو أحد أخاه بلقب يكرهه ، ولا يسيء ظنه بأحد من إخوانه المؤمنين ، ولا يبحث ويفتش عن عورات المسلمين ومعايبهم ، ويستكشف ما ستروه ولا يذكر أخاه بما يكرهه فى غيبته ، فإن ذلك كله مما نهى الله عنه ورغب فى التباعد عنه .

ونهى الله عن أن يعيب أحد غيره بقوله : (ولاتلمزوا أنفسكم) أى لايعب بعضكم بعضاً بقول أو فعل أو إشارة ، لأن المؤمنين كنفس واحدة ، فمتى عاب المؤمن المؤمن فكأنما عاب نفسه ، وهذا أدب الله ، أدب به عباده المؤمنين ، ليكون سببا فى اتحادهم وارتباط قلوبهم .

ونهى عن أن يدعو أحد أخاه بلقب يكرهه بقوله : (لا وتنابزوا بالألقاب) أى لايدع أحد أخاه بلقب يكرهه ، لأن ذلك يزرع فى القلوب الضغينة والحقد والبغضاء .

ونهى الله عن سوء الظن بالناس بقوله : (يأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم .

ونهى عن البحث والتفتيش عن عيوب الناس وعوراتهم بقوله : (ولا تجسسوا) أى لا تبحثوا عن عورات المسلمين ، ولا تستكشفوا عما ستروه ، فإن فى ذلك فضيحة لهم ، وتعرضاً لما لا يغنى ولا يفيد ، ونهى عن أن يذكر أحد أخاه بما يكرهه فى غيبته بقوله : (ولا يغتب بعضكم بعضاً ، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه) ؟ أى لا يذكر بعضكم بعضاً بمـا يكرهه فى غيبته سواء أكان ذلك باللسان ، أم بالفعل ، أم بالإشارة ، أم بالكتابة ؟

وسواء أكان ذلك الشيء المكروه الذى يذكره نقصاً فى بدنه، أم نسبه، أم خلقه، أم فى فعله، أم فى دينه، حتى فى ثوبه وداره وماله، وولده وزوجته

فذلك مما كرهه الله ، ونهى عنه حتى جعل المغتاب كأنه يأكل لحم أخيه ميتاً ، ذلك الأمر المستبشع طبعاً وعقلا وشرعاً .

* * *

ومن حق المسلمة على المسلم والمسلمة تجنب قذف النساء بالسوء ، فهو من أقبح الذنوب ، لذلك اعتبر القاذف فاسقا لا تقبل شهادته ، وجعل الله عقابه ثمانين جلدة ، وهذا ما جاء فى آياته البينات قوله تعالى :

« وَالَّذِينَ يرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدةً ، وَلَاتَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ » .

أما عن آداب دخول المنازل والمساكن فقال تعالى :

« يأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لاتَدْخُلَوا بُيوتًا غير بُيوتِكم حتى تسْتأْنِسُوا وتُسلِّمُوا علَى أَهْلِها ذٰلِكم خيرٌ لكُمْ لَعَلَّكُمْ تذَكَّرُونَ فإنْ لم تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلا تَدْخُلوهَا حتى يُؤذَنَ لَكمْ وإنْ قيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكى لَكم والله بِمَا تَعْملُونَ عَلِيمٌ » .

أى لا يدخل الواحد منكم على غيره فى بيته الذى هو فيه ، حتى يستأذن فى الدخول ، فإن أذن له دخل وإلا رجع ، والنهى عن الدخول بلا إذن يشمل الأقارب والأجانب والرجال والنساء والبصير والأعمى ، لأن حكمة الاستئذان التحفظ من اطلاع الناس على أحوال غيرهم الداخلية ، سواء أكان بالنظر أم بالسمع ؟ وسواء أكان المطلع صديقاً أم عدوا ؟ قال رجل للنبى صلى الله عليه وسلم أأستأذن على أمى ؟ قال نعم ، قال ليس لها خادم غيرى ، أأستأذن عليها كلما دخلت ؟

قال أتحب أن تراها عريانة ؟ قال لا . قال فاستأذن عليها .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : حق المسلم على المسلم خمس : « رد السلام ، وعيادة المريض ، واتباع الجنايز ، وإجابة الدعوة ، وتشميت العاطس » .

(رواه البخارى ومسلم)

---

(١) سورة النور : الآيتان ٢٧ ٢٨ .

التضامن الاجتماعى

بين المسلمين

عن أبى سعيد — رضى الله عنه — قال : قال صلى الله عليه وسلم :
« من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له ، ومن كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له » .

(رواه مسلم ، وأحمد ، وأبو داود)

ومعنى ذلك أن الإنسان إذا كان على سفر ، ورأى أخا مسافرا مثله ، وكان يملك دابة أو سيارة ، وأخوه بلا دابة أو سيارة تساعده للوصول إلى المكان المطلوب ، فعلى صاحب الدابة أو الدواب أن يعطيه دابة أو أن يحمله معه على دابته ، ليحميه من متاعب الطريق ، وعلى من له سيارة أن يحمله معه فى سيارته .

ويقول صلوات الله عليه :

« من كان عنده فضل زاد فليعد به على من لا زاد له » .

فالإسلام لا يرضى عن الإنسان يشبع ، وقريبه أو جاره جائع ، وعنده الكثير الزائد عن حاجته .

والإسلام لا يرضى أن تتلف عند الأغنياء بقايا الطعام ، بينما يعانى آلام الجوع بعض اليتامى والأرامل والشيوخ .

الفضل : الزيادة عن حاجته .
الظهر : الدابة التى يركبها المسافر .
ليَعد به على : فليعطه إياه .

وفضل الزاد وفضل الظهر ، ليسا إلا مثلين ، للتطبيق والممارسة على باقى أمور الحياة .

ولا شك أن مثل هذا التعاون والتضامن والإخاء يخلق المودة والحب بين الناس والمجتمع .

* * *

وبثلاث توصيات أوصانا بهـا النبى صلى الله عليه وسلم وضع أساسا للتضامن الاجتماعى بين المسلمين إذ قال :

« من نفس[1] عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسر على معسر يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة ، ومن ستر مسلماً ستره الله فى الدنيا والآخرة ، والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه » .

• ففى التوصية الأولى يقول النبى صلى الله عليه وسلم :

من نفس كربة مكروب فى الدنيا ، نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيـــامة .

والكربة هى الشدة تنزل بالمرء يضيق بها صدره ، وتطمس أمامه طرق التفكير ، فلا يجد ملجأ يلجأ إليه ، ولا مسلكا يسير فيه ، فتقف به حركة الحياة ، فيملؤه اليأس ، فيرتد على عقبيه خاسرا دنياه وآخرته .

وقال أيضا فى التوصية الثانية :

• « من يسر على معسر ، يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة »

والعسر هو الضيق المالى ، ينزل بالمرء حتى لا يجد قوت نفسه ولا قوت أولاده ، فيضيق صدره ونفسه وبمن يعول . وقد يشتد به الأمر فيسرق أو يقتل أو يلقى بنفسه من شاهق جبل أو بناء ، وتكون الكارثة على أسرته ،

---

(١) نفس كربة = خفف عنه آلام الهم والضيق .

فتتحطم أو تترمل ، فكأن من يسر على معسر يكون قد أنقـذ الأسرة وأسهم فى إنقاذ المجتمع .

وقال أيضا « من ستر مسلما ستره الله فى الدنيا والآخرة » .

• فبهذه التوصيات يتحقق للمسلم ستر الله واليسر بعد العسر ، والفرج بعد الضيق .

وفى هذه التوصيات صور متكاملة تحقق للمسلمين التعاون والتضامن الاجتماعى .

أدب التحية والحديث

فى الإسـلام

كان محمد صلى الله عليه وسلم معلم الأمة الإسلامية ومرشـدها إلى السلوك الإنسانى الطيب الذى يساعد على نشر المحبة والتآلف بين الناس . ومن السلوك الإسلامى الطيب المبادرة بتحية الناس والجماعات ، لأنها تبعث الألفة وتخلق المودة والطمأنينة بينهم . أما ترك التحية فيؤدى إلى الجفاء ، وهو مظهر من مظاهر التكبر والاستعلاء ، ولذلك دعا النبى صلى الله عليه وسلم كل مسلم إلى تحية الإسلام كلما قابل واحدا أو جماعة من المسلمين

قال تعالى : « وإذا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ ، فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا »

وقالَ رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم من حديثٍ له : « أَلَا أَدُلُّكُمْ علَى شَيْءٍ إنْ فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ ؟ أَفْشُوا السَّلَام بَيْنَكُمْ .

ولما كانتِ التَّحِيةُ منْ دَوَاعى الأُلْفَةِوالمَودَّةِ علَّمَنا اللهُ تعالى كيْفَ نَرُدُّها فقال « وإِذَا حُيِيتمْ بِتَحيَّةٍ فحيُّوا بأَحْسنَ منها أَوْ رُدُّوها إنَّ اللهَ كانَ على كلِّ شَىءٍ حَسِيبًا » وقالَ رَسولُ اللهِ صلىاللهُ عليْهِ وسلم (إِذَا التقى المُؤْمِنانِ فَسلَّمَ كلٌّ واحدٍ منهماعلى الاخر وتَصافَحا ، كانَ أَحَبُّهما إلى اللهِ تعالى أَحْسنَهُما بِشْرًا بِصاحِبِهِ) وسُئِلَ رسُول الله صلى اللهُ عليه وسلم أَىُّ الإِسْلَامِ خيرٌ ؟ فقال :

(تُطْعِمُ الطَّعامَ ، وتَقْرَأُ السلامَ على مَنْ عَرَفْتَ ومَنْ لمْ تَعْرِفْ) .

وتَحِيَّةُ المُسْلمينَ عِنْدَ اللِقاءِ هىَ السلامُ عَلَيكمْ .

عنْ أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللهُ عنهُ قَال : قَالَ رسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسلَّم « لاتَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا ، أَلَا أَدُلكُمْ عَلَى شيءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ ، أَفْشُوا السَّلَام بَيْنَكُمْ » .

(رواه مسلم)

* * *

جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : السلام عليك يا رسول الله .

فقال الرسول : « وعليك السلام ورحمة الله » .

ثم جاء رجل آخر فقال : السلام عليك يا رسول الله ، ورحمة الله » .

فقال الرسول : « وعليك السلام ورحمة الله وبركاته .

ثم جاء رجل ثالث فقال : السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته » .

فقال الرسول : « وعليك السلام ورحمة الله وبركاته » .

فقال الرجل : يارسول الله ، إنك زدت فلاناً وفلاناً فى رد التحية ، ولم تزدنى .

فقال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : « إنك لم تترك لى شيئاً أزيدك ، فرددت عليك بمثل ما قلت .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لخادمه « أنس بن مالك » :

« يا بنى ، إذا دخلت على أهلك فسلم ، تكن بركة عليك وعلى أهل بيتك »

حتى أحاديث المجالس تناولها الإسلام فى القرآن الكريم والأحاديث النبوية واضعا لها القواعد والأصول ، فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إذا انتهى أحدكم إلى المجلس فليسلم ، وإن أراد أن يقوم فليسلم ، فليست الأولى بأحق من الآخرة . (أخرجه أبو داود والترمذى)

ومن أدب الإسلام : أن يوسع لجليسه إذا أقبل عليه ولا يضيق عليه ، وأن يجلس بين يديه بغاية الأدب والسكينة والوقار إذا كان أكبر منه سنا أو علما ، وخصوصا إن كان أباه أو شيخه ، وأن يرحب به ويقبل عليه إذا حدثه ، وأن لا يمد رجليه بين يدى جليسه ، ولا يضع رجلا على الأخرى بحضرة من هو أكبر منه إن كان ذلك يغضبه ، ولا يبصق ولا يتمخط إلا فى « منديل » مواريا وجهه عن جليسه . وإذا تثاءب فعليه أن لا يصحب التثاؤب بصوت ، وعليه أن يضع يده على فمه ، وقد قال تعالى :

« ياأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِى المَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللهُ لَكُمْ .

* * *

ومن الواجب مقابلة الناس بغير عبوس ، فالبشاشة رسول المودة ومفتاح القلوب ، وبها تهدأ النفوس الغاضبة والأعصاب الثائرة .

وقد قال الله تعالى لنبيه الكريم :

« وَقُلْ لِعِبَادِى يَقُولوا الَّتى هىَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطانَ(١) يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ ، إِنَّ الشَّيْطانَ كان للإِنْسَان عَدُوًّا مُبِينا » .

---

(١) ينزع : يفسد بين المسلمين وغيرهم بالوسوسة والتى تهيج الشر

وترشد هـذه الآية الكريمة إلى ما علمنا الله إياه من حسن الأدب فى المحادثة والمخاطبة ، فقد أمر نبيه صلى الله عليه وسلم عباده المؤمنين أن يقولوا فى مخاطباتهم وأحاديثهم الكلام الحسن والكلمة الطيبة ، فإنهم إن لم يفعلوا ذلك نزغ الشيطان بينهم ، وألقى بينهم العداوة والبغضاء فهو عدو الإنسان يتربص به الدوائر ، ويترقب له الفرص فى حصول الشحناء بينه وبين أخيه الإنسان .

* * *

ومن أدب الإسلام حسن الحديث ، لأن للسان زلات ، وله خطره ، ولا نجاة من خطره إلا بتقييده ووقوف صاحبه عند الحدود والخضوع لآداب الإسلام ، فلا يطلق لسانه إلا من أجل حق يوضحه أو باطل يمنعه، أو حكمة ينشرها ، أو نعمة يذكرها ، وألا يتكلم إلا بقـدر الحاجة والضرورة ، وألا يتكلم إلا إذا دعا داع إلى الكلام ، وألا يتكلم فيما لا يعنيه ، وأن يتجنب فى حديثه كل ما يكدر مخاطبه ، لمنع بذر بذور العداوة والأحقاد بين الناس .

ما أصدق قول الشاعر العربى :

يصاب الفتى من عثرة بلسانه
وليس يصاب المرء من عثرة الرجل
فعثرته من فيه[1] ترمى برأسه
وعثرته بالرجل تبرأ على مهل

* * *

ومن أدب الحديث فى الإسلام الحث على خفض صوت المتحدث ، لأن علو الصوت أكثر مما ينبغى أمر منكر ، فيه إثارة لاعصاب المستمع ، وأذى له ، ولهذا قال الله تعالى وهو أصدق القائلين :

---

(١) فيه : فمه

« واغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إنَّ أَنْكَرَ الأَصْواتِ لَصَوتُ الحَمير » .

وترشد هذه الآية إلى أن علو الصوت ، أكثر ممـا ينبغى ، يؤذى السامع ويثير أعصابه ، فلا يسهل بعد ذلك التفاهم والتقارب بين وجهات النظر بين المتحدثين أو المتخاصمين .

وقد شبهت الآية مثل هذا الصوت المنكر بصوت الحمير « النهاق » تنبيها على أن رفع الصوت أمر غاية فى القبح والبشاعة .

* * *

وكان النبى لا يتكلم فى غير حاجة ، وهو القائل :

« من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت »

وكان النبى لا يتدخل بالكلام فيما لا يهمه ، وهو القائل أيضا :

« من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه »

وكان النبى صلوات الله عليه لا يعبس فى وجه محدثه ، ولا يتركه إلا إذا أقنعه ، وأرضى نفسه ، وكان يخاطب كل شخص على قدر فهمه وخبرته .

وكان يشرح نفس محدثه ودائما كان يقول « بشروا ولا تنفروا »

وكان النبى يقبل على من يحدثه بوجه مبتسم ، ونفس صافية ، ولهذا كان دائما يقول :

« إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم ، وإنما يسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق »

• وكان لا يتعجل محدثه ولا يقطع عليه الحديث .

الوفاءُ بالوعدِ والعهدِ وردّ الأمانات إلى أهلها

أمرنا الله تعالى بحفظ الأمانات ، وردها إلى أصحابها ، ولن تعيش الناس آمنة مطمئنة إلا إذا أصبحت الأمانة عادة يحترمها كل الناس . ولهذا قال تعالى فى كتابه الكريم :

« إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بيْنَ النَّاس أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعدْل .

* * *

وفى القصتين التاليتين صورتان رائعتان للوفاء بالوعد ورد الأمانات لأصحابها عند العرب .

كان وفاء السموءل مضرب الأمثال ، وله قصة يتناقلها الناس جيلا بعد جيـــل .

لمـــا قتل الملك حجر أبو امرئ القيس ، ومنع امرؤ القيس الشاعر المشهور من ملك أبيه ، أخذ أسلحته ودروعه وأودعها السموءل الذى عاهده على ألا يسلمها لأحد غيره .

ومضت الأيام ، ومات امرؤ القيس ، فسير ملك من ملوك الشام رسولا إلى السموءل يطلب منه الدروع والسلاح .

فقال « السموءل » للرسول :

لا أخون أمانتى ولا أعطيها إلا مستحقيها .

فجاء إليه الملك بعسكره ، فدخل السموءل حصنه ، ووقف الملك وجنده فى خارج الحصن .

وفى أثناء الحصار عثر الجند على ابن للسموءل ، فأخذوه أسيرا ، ونادى ملك الشام السموءل ، فأشرف عليه من أعلى الحصن ، فقال الملك :

لقد بات ولدك أسيرا عندى ، إن سلمت إلىّ الدروع والسلاح ، سلمت إليك ولدك ، ورحلت ، وإن امتنعت ذبحته على مرأى منك .

فقال له السموءل :

إنك إن قتلت ابنى فعندى من يخلفه ، ولا عار فى قتله ، فقد عاش كريما ومات كريما ، أما نقض العهد فلا سبيل إليه ، لما يعقبه من العار .

فضرب الملك رأس الغلام بالسيف فقطعه ، وأبوه ينظر من فوق الحصن ، ثم عاد هو وجنده من حيث أتوا .

ولما جاء ورثة امرئ القيس سلم إليهم الدروع والسلاح .

وبذلك صار السموءل مضرب الأمثال فى الوفاء بالعهد .

فأى وفاء أعظم قدراً من هذا الوفاء ؟

ولن تعيش الشعوب آمنـــة مطمئنة إلا إذا ساد الوفاء بين أفرادها وجماعاتها ، وفى القصة التالية تصوير رائع للوفاء بالعهود فى عصر الإسلام .

* * *

بينما كان الخليفة عمر بن الخطاب ذات يوم جالسا يقضى بين الناس وحوله أكابر الصحابة ، إذ أقبل غلامان ممسكان بشاب من ثيابه ، ويقولان إنه قتل أباهما ولذلك يطلبان القصاص [١] .

---

(١) القصاص : الجزاء المقوبة .

ولما سأل الخليفة الشاب لم ينكر ما اتهمه به الغلامان ، ولكنه قال إنه كان يرعى إبله فتسللت إحدى النياق[1] إلى بستان قريب ، وإذا بشيخ يرميها بحجر فيصيب منها مقتلا ، فما إن رأى الشاب ناقته وهى تتلوى حتى فقد صوابه ، وتناول نفس الحجر ورمى به الشيخ رمية كانت القاضية .

قال عمر :

أما وقد اعترفت بجرمك ، فلابد من القصاص .

قال الشاب :

السمع والطاعة . . . عندى ودائع[2] وأموال أحب أن أردها إلى أصحابها ، فهل لك أن تعيننى على ذلك بإخلاء سبيلى الآن ، على أن أعود إليك غدا ؟

فرفض عمر فى أول الأمر ، خشية أن يكون الرجل مخادعا ، ثم قال للغلام :

ومن يضمنك ويكفل عودتك ؟

فتلفت الشاب بين الحاضرين ، وأشار إلى أبى ذر وقال :

هذا يضمننى

قال عمر :

ما رأيك يا أبا ذر ؟

قال أبو ذر :

أضمنه لثلاثة أيام ، ولو أنى لا أعرف من يكون بين العرب ، ولا إلى أى قبيلة ينتسب ؟

---

(١) النياق ، جمع ناقة وهى أنثى الجمل

(٢) ودائع : جمع وديعة وهى الشيء الذى تأمن عليه غيرك فتضعه عنده .

وعندها أذن الخليفة للفتى بالانصراف .

ولما انتهت الأيام الثلاثة أقبل ولدا القتيل يطلبان توقيع القصاص ، لكن الفتى لم يكن قد حضر . . . فأعلن عمر على مسمع من أبي ذر :

والله لئن لم يحضر لأقضين فى أبى ذر بشريعة الله !

فأخذ الحاضرون يتهامسون ، وكلهم مشفق على أبى ذر أن يذهب ضحيه مروءته ، وراحوا يعرضون على الغلامين دية أبيهما وهما يرفضان .

وفجأة أقبل الشاب والعرق يتصبب من جبينه ، ووقف بين يدى الخليفة يقول :

لقد سلمت الطفل إلى أخواله ، وائتمنتهم على أمواله ، وجئت إلى الخليفة لينفذ فى قضاء الله .

فدهش الحاضرون ، وراحوا يهللون ويكبرون ، وأقبلوا على أبى ذر مهنئين ، وأخذوا يشيرون إلى الغلام قائلين :

والله ما أكرمه من غلام .

وعند ذلك تقدم الشابان إلى الخليفة ، وهما يقولان :

يا أمير المؤمنين . . . لقد عفونا عن هذا الشاب ووهبنا له دم أبينا ، لأنه صدق وعده ، وأوفى بالذمام[1] .

وعندئذ أكبر الحاضرون مروءة الغلامين ، كما أكبروا مروءة أبى ذر ووفاء الغلام ، وانصرفوا وهم يرددون :

ومن يصنع الخير لا يعـــدم جوازيه[2]

لا يذهب العرف[3] بين الله والناس

---

(١) الذمام : العهد

(٢) جوازيه : مكافئيه

(٣) العرف : المعروف : الصنع الجميل

معاملة المسلم لغير المسلم

يدعو القرآن الكريم المسلمين إلى التسامح الدينى ، ويدعوهم إلى حسن معاملة غيرهم ممن ليسوا على دينهم ، ما داموا فى سلم ، لا ينقضون عهدا ، ولا يثيرون فتنة .

قال سبحانه وتعالى :

« لا يَنهَاكُمُ اللهُ عن الَّذِينَ لمْ يُقَاتِلوكُمْ فى الدِّينِ ، ولمْ يُخْرِجُوكُمْ من دِيارِكُمْ أَن تَبَرُّوهم وتُقْسِطوا (١) إِلَيْهِم ، إِنَّ اللهَ يُحبُّ المقْسِطِينَ ، إِنَّما ينْهاكُمُ اللهُ عن الذِينَ قاتَلُوكم فى الدِّينِ ، وأَخرَجوكُم منْ ديارِكُم ، وظَاهَرُوا على إِخْراجِكُم أَن تَوَلَّوْهُم ، ومَن يَتَولَّهم فأُولئك هم الظالمون » .

كما دعا الله إلى مخاطبة أهل الكتاب بالرفق ، وعرض الحجة الواضحة :

« ولا تُجادِلُوا أَهلَ الكتابِ إِلَّا بالَّتى هِىَ أَحْسنُ إِلَّا الذين ظَلَمُوا مِنْهُم ، وقولُوا آمنَّا بِالذى أُنْزِلَ إِلَيْنا وأُنْزِلَ إِلَيْكم وإِلَهُنَا وإِلَهُكُمْ واحد ، ونحنُ لَهُ مُسلمون » .

وأمر الله النبى أن يساعد المشرك إذا لجأ إليه وأن يبلغه مأمنه ، إذ قال تعالى :

« وإن أحد من المشركين استجارك(٢) فأجره ، حتى يسمع كلام الله ، ثم أبلغه مأمنه ، ذلك بأنهم قوم لا يعلمون »

---

(١) تقسطوا : تعدلوا

(٢) استجار = طلب معونتك

وأمر الله المسلمين بأن يفوا بعهودهم لمن عاهدوا ، سواء أكانوا من أهل الكتاب أم من المشركين ، إذ قال سبحانه وتعالى .

« وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا »

الإسلام لا يعرف تعصبا ، وليس فيه اتهام لنبى ولا تهجم على الرسل

* * *

ونص النبي على التسامح قولا وفعلا فقال نبينا الكريم :

من ظلم معاهدا(١) أو انتقضه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفس ، فأنا حجيجه (٢) يوم القيامة .

وأمر بألا يجبر أحد من النصارى أو اليهود على ترك دينه . لهذا أظهر النبي وخلفاؤه وقادة المسلمين سماحة وكرم خلق . فيما عقدوه من صلح ومعاملة مع البلاد التى فتحوها مع أن شأن المنتصر عادة أن يملى شروطه بالإكراه والقوة ، ولكن المسلمين كانوا فى معاهداتهم مع المغلوبين عادلين ، فأقروهم على عقائدهم وشعائرهم الدينية ، وحافظوا على أموالهم .

لقد أوصى أبو بكر أسامة بن زيد عندما أرسله إلى الشام قائلا :

« لا تخونوا ولا تغدروا ، ولا تقتلوا طفلا ، ولا شيخا كبيرا ، ولا امرأة ، ولا تقربوا نخلا ، ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا إلا للأكل . وإذا مررتم بقوم فى كنائسهم فاتركوا ما فرغوا أنفسهم له » .

وأوصى عمر بن الخطاب أبا عبيدة بن الجراح خيرا بأهل الأديان الأخرى قائلا :

---

(١) معاهد = من كان له عهد أو أمان

(٢) حجيجه = خصم له

« وامنــع المسلمين من ظلمهم والإضرار بهم ، والأكل لأموالهم إلا بحق » .

فحقق أبو عبيدة ما أراد عمر ، وعاهد أهل الشام معاهدة كريمة ، وأعطى أهل « إيلياء[1] » أمانا على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم ، وأنهم لا يضطهدون بسبب دينهم ، ولا يضار أحد منهم .

وكان عمر بن الخطاب بالشام ، وقد جاءت وقت الصلاة وهو فى كنيسة القيامة ، وأراد عمر الصــلاة ، فطلب البطريق[2] أن يصلى عمر صلاته بالكنيسة فاعتذر عمر قائلا :

أخشى أن أصلى فى الكنيسة ، فيدعى المسلمون فيما بعد أنها مسجدهم ، فيأخذونها من النصارى ويقولون : هنا صلى عمر .

وعندما فتح عمر بيت المقدس عقد معاهدة مع اسقفها جاء فيها :

« هذا ما أعطى عمر أهل إيلياء — بيت المقدس — من الأمان :

أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم ، ولكنائسهم وصلبانهم ، ولا يكرهون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم . . وعندما دخل عمرو بن العاص مصر عقد مع النصارى اتفاقا استردوا به حريتهم الدينية[3] ، ونالت كنائسهم وصوامعهم ضمانا بحمايتها ، ودفعوا للوالى المسلم جزية قدرها عشرة قروش للفرد الواحد فى العام ، بينما كان الرومان يجمعون منهم ضرائب باهظة أضعافا مضاعفة فوق كاهل الشعب .

ولما فتح المسلمون الأندلس أعفوا من الجزية القليلة غير القادرين .

وفى الحالات التى اعتدى فيها المسيحيون على المسلمين ، لم يحاكمهم المسلمون أمام محاكم إسلامية ، بل حوكموا أمام قضاة من المسيحيين .

---

(١) إيلياء : بيث المقدس　　　(٢) البطريك : البطريق : قائد دينى

(٣) جزية : ما يؤخذ من أهل الذمة

وظل المسيحيون أحرارا فى إقامة صلواتهم ، وبنوا عدة أديرة جديدة ، وفضلا عن ذلك تولى بعض المسيحيين بعض المناصب العالية فى قصور الملوك والولاة ، وتعلموا اللغة العربية ، واندمجوا مع المسلمين بالمصاهرة .

وشهد شاهد من أهلها

واعترف كثير من المسيحيين واليهود بتسامح الإسلام وسماحة المسلمين . قال البطريرك (عيشويابه) الذى تولى منصبه عام ٦٤٧ — ٦٥٧ هـ :

إن المسلمين الذى مكنهم الله فى الأرض ليسوا أعداء للنصرانية ، لأنهم يوقرون قديسينا وقسيسينا ، ويحترمون كنائسنا[(١)] » .

واعترف السير « توماس ارنولد » لقد عامل المسلمون الظافرون المسيحيين معاملة كلها تسامح ، استمر عدة قرون . ونستطيع أن نقول :

إن القبائل المسيحية التى اعتنقت الإسلام إنما اعتنقته عن إرادة ورغبة ، وإن العرب المسيحيين الذين يعيشون فى وقتنا الحاضر بين جماعات مسلمة لدليل واضح على هذا التسامح .

وقد تحدث البابا شنوده الثالث بطريرك الأقباط فى مصر فى لقاء الرئيس السادات بالقيادات الدينية فى فبراير ١٩٧٧ ، عن سماحة الإسلام وقال :

الإسلام فى جوهره وفى روحه وفى أساسه يعامل غير المسلمين معاملة طيبة ، نذكر من هذا الميثاق الذى أعطى لنصارى نجران ، والميثاق الذى أعطى لقبيلة تغلب ، والوصية التى قدمها الخليفة الإمام عمر بن الخطاب قبل موته ووصية الخليفة أبى بكر الصديق لأسامه بن زيد ، والميثاق الذى أعطاه خالد بن الوليد لأهل دمشق ، والميثاق الذى أعطاه عمرو بن العاص

---

(١) أهل الذمة فى الاسلام تأليف ا . س . ترتون

(٢) الدعوة إلى الاسلام تأليف السير توماس ارنولد .

لأقباط مصر ، واذكر أيضا العبارة الإسلامية الجميلة — استوصوا بالقبط خيرا ، فإن لنا فيهم نسبا ورحما . واذكر أيضا الحديث الشريف « من آذى ذميا فليس منا العهد لهم ولأبنائهم عهد أبدى لا ينقض » يتولاه ولى الأمر ويرعاه .

هكذا أعطى الإسلام حرية الدين لغير المسلمين . اذكر أيضا فى سماحة الإسلام حفظه فى عهوده ومواثيقه للمسيحيين فى كنائسهم وصوامعهم ورهباناتهم وأملاكهم وأرواحهم وكل شىء ، فى كل هـــذا دليل قاطع على حسن معاملة المسلمين لأهل الأديان الأخرى . . . وهـــذا ما جاء به القرآن والسنة المحمدية .

معاملة الخادم والأجير

يعاون الخدم مخدوميهم فى منازلهم ومتاجرهم وحقولهم ، ويقدمون لهم أجل الخدمات ، خصوصا إذا كان المخدوم شيخا أو مريضا أو مشغولا بأعمال أخرى ، لهذا منحهم الإسلام حقهم من العطف والعناية والرعاية ، وطالب المخدومين بأداء هذا الحق .

والإسلام سعى إلى خلق الحب والمودة والتعاون والإخاء بين أفراد الأسرة ، وبين الجار وجيرانه ، وبين الأغنياء والفقراء ، وبين الناس جميعا . حرص على خلق هذا الحب والإخاء والتعاون بين الخادم والمخدوم ، ليضمن ترابط المجتمع كله .

قال النبي صلى الله علية وسلم لزيد بن حارثة « أنت أخونا ومولانا » .

فى هذا الحديث الشريف يقرر رسول الله صلى الله عليه وسلم — أن زيد ابن حارثة — وهو خادمه — أخوه فى الإنسانية وفى الدين ، وما دامت هذه الأخوة قد جمعت بينهما ، فلا بد أن ينظر إليه نظرة الأخ إلى أخيه ، فيحترمه ويعطف عليه ، ويحبه ويحسن معاملته .

وقد حض النبي على الرفق بالخدم فقال : « **إنهم إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده ، فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم ما يغلبهم ، فإن كلفتموهم فأعينوهم** » .

وكان عليه السلام يؤاكل خادمه ، ويزوره فى بيته ، ويتلطف مع أهله .

* * *

الخدم إخواننا فى الدين والإنسانية ، فعلى المؤمن أن ينظر إلى خادمه نظرة الأخ إلى أخيه . ومن أجل هذا وجب أن تكون معاملتهم مبنية على أساس من العطف والرحمة ؛ بأن يكون العمل الذى يكلف به الخدم محدودا ، وفى طاقتهم القيام به ، مع إرشادهم إلى طريقة العمل المرضية ، وشكرهم عند الإحسان ، وعدم تعنيفهم عند التقصير ، ومعاملتهم بالرفق والعطف ، وضرورة مواساتهم فى الشدة ، وعيادتهم عند المرض ، وإحضار الطبيب لهم إذا ساءت حالتهم .

ويجب على المخدوم أن يرشد خدمه لمواقع الصواب ، وما ينبغى أن يتصفوا به ، وأن يربيهم باللطف والحزم ، ولا يهينهم بقبح الألفاظ ، مما يجرح قلبهم ، ويذل نفوسهم ، إذ ليس للسيد أن يتسلط على خادمه بذلك لا شرعا ولا عرفا ، ويجب عليه كذلك أن يسمح للخادم أو الأجير بساعة من النهار يتروح فيها ويتمتع بشئونه ، وأن يجرى عليه راتبا يناسبه . وأن يزيد فى راتبه أو أجره ، كلما رآه مجدا مخلصا فى عمله .

ويجب على السيد ألا يكثر من اللوم والتقريع فى كل مناسبة ، لأن الخادم أو الأجير إذا شعر بأن تصرفاته معرضة على الدوام للنقد وعدم الاستحسان ، امتنع عن الإقدام حيث يكون الإقدام واجبا ، وكف عما يجب أن يعمل فى ساعة الحاجة الشديدة لهذا العمل .

ويجب ألا يفوت المخدوم إعطاء الخدم رواتبهم فى المواعيد المحددة ، التى سبق الاتفاق عليها ، لأن فى تأخير دفعها مشقة لهم ، إذ يضطرهم العوز وتجبرهم الحاجة إلى الاستدانة ، وهذا مما يدعوهم فى بعض الأحيان إلى الانفصال عن المخدوم .

ويجب أن يعلم الخادم من بدء مباشرة الخدمة أن ترك عمله ومكان

خدمته يجب أن يكون مسبوقا بإعلان منه ، وكذلك يجب ملاحظة ذلك إذا أريد الاستغناء عنه . ولكى يحصل الخادم على حقه يجب أن يؤدى كل واجباته كاملة . ومن المعاملة الحسنة أن يطعم السيد خادمه من طعامه ، وأن يلبسه من نفس ما يلبس ، وألا يكلفه ما ليس فى طاقته : كأن يرهقه بالعمل المتصل ، أو يكلفه عمل ما لا يستطيع ، أو يرسله إلى مكان خطر على حياته .

فلا شك أن هذه المعاملة تشعره بالرضا والارتياح فيخلص فى عمله .

قال المعرور بن سويد : عندما رأيت خادم أبى ذر يرتدى حلة مثل حلة سيده عجبت ، وسألت أبا ذر ، فقال لى :

هذا أخى فى الدين .

* * *

لقد شاتمت رجلا وحقرته(١) مناديا : يا بن الأمة ، فأنكر النبى على ذلك وقال :

« إنك امرؤ فيك جاهلية(٢) . هم إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم من كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ، ويلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم(٣) ما يغلبهم ، فإن كلفتموهم فأعينوهم عليه » .

كان أنس بن مالك ، يخدم النبى صلى الله عليه وسلم ، فجلس يوماً يتحدث عن أخلاق النبى وحسن معاملته ؛ فقال : كان رسول الله أحسن الناس خلقا : خدمت رسول الله عشر سنين ، فما سمعت منه يوماً ، كلمة أغضبتنى ، ولا رأيته تأفف يوما من شىء فعلته ، وكنت أفعل ما أفعل ، وأترك ما أترك ، فلا يسألنى . لم فعلت هذا ؟ حتى لقد كنت

---

(١) حقرته : نقصته ونسبته الى العار والعيب .

(٢) فيك جاهلية : فيك صفات مذمومة من خصال أهل الجاهلية .

(٣) تكلفوهم : تحملوهم جهدا ومشقة .

من حسن معاملته — أحس كأنني أنا السـيد ، وما شعرت فى يوم من الأيام أننى خادم عنده .

هذه وصايا الإسلام وتقاليده التى رفعت من شأن الخدم والأتباع ، فالخدم ومن فى حكمهم إخوان فى الدين والإنسانية فيجب الرفق بهـم ، والأخذ بيدهم ومعاملتهم بالعدل والحسنى ؛ وعليهم الطاعة والوفاء لمن يعملون معهم .

وبجانب هذا يجب أن يعمل الخادم أو الأجير بكل وفاء وإخلاص ، لا يهمل ، ولا يخون ، ويكون لمال مخدومه وسيده حافظا وواعيا وأمينا .

معاملة الحيوان فى الإسلام

اجتمع خمسون عالما من أنحاء العالم المختلفة ببروكسل فى أواخر ١٩٧٧ الماضى لافتتاح العام العالمى « لحقوق الحيوان » . . وأشارت إلى أن وثيقة إعلان هذه الحقوق عالميا ، تصدر مستوحاة من إعلان « حقوق الإنسان » .

وهذه ظاهرة محمودة من ظواهر الرحمة والرفق بالمخلوقات الحيوانية التى خلقها الله وسخرها لخدمة الإنسان ، وليس لتغذيبها والتمثيل بها ، وقتلها بأساليب منكرة مثلما يحدث فى مصارعة الثيران على املاء حاشدة من الناس ، ابتغاء اللهو والمقامرة .

غير أننا ما نراهم قد جاءوا بجديد فى فى هذا الاعلان أو ذاك ، فلقد سبقهم الإسلام فى تقرير هذه الحقوق منذ أربعة عشر قرنا ، وبلغ فى ذلك نجاحا لم تبلغه هيئة الأمم المتحدة مع وفرة ما لديها من قوى الدعم القانونى والدولى والمالى ، عمت رحمة النبي صلى الله عليه وسلم الفقراء واليتامى والمساكين وابن السبيل ، حتى الحيوانات والطيور كانت موضع عطف النبي ورحمته ، إذ قال :

كان رجل يمشى فى الطريق فاشتد عليه العطش ، فوجد بئرا فنزل فيها ، فشرب ، ثم خرج ، فإذا كلب يلهث[1] ، يأكل الثرى[2] من العطش .

---

(١) يلهث : يخرج لسانه من العطش .

(٢) الثرى : التراب الندى .

فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب مثل الذى كان بلغ منى ، فنزل البئر ، وملأ خفه[1] ماء ، فسقى الكلب ، فشكر الله له ، فغفر له .

قالوا : يا رسول الله ، وإن لنا فى البهائم[2] لأجرا[3] ؟

فقال : فى كل ذات كبد[4] رطبة أجر .

وقال النبى صلوات الله عليه :

« دخلت امرأة النار فى هرة ، فلم تطعمها ولم تتركها تأكل من خشاش[5] الأرض » .

وكان بعض الصحابة مسافرين مع رسول الله ، فرأوا عصفورة ، معها فرخان لها ، فأخذوها ، فجاءت العصفورة ترفرف بجناحيها فلما جاء الرسول قال :

من فجع[6] هذه بولدها ؟ .... ردوا ولدها إليها .

• وأراد جزار ذات مرة أن يذبح شاة فانطلقت هاربة منه ، حتى وصلت إلى رسول الله ، وكان جالسا بالقرب منها . وجاء صاحبها وجرها بعنف من ساقها ، فأوصاه النبى بأن يسحبها برفق ، وأن يحسن ذبحها .

عن أبى يعلى شداد بن أوس رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « **إن الله كتب الإحسان على كل شىء . فإذا قتلتم**

---

(١) الخف : ما يلبس فى الرجل .
(٢) البهائم : المراد الحيوان والطير .
(٣) اجرا : ثوابا ومكافأة .
(٤) كل ذات كبد رطبة : المراد كل كائن حى .
(٥) خشاش الأرض : حشرات الأرض وبعض ما فيها من ديدان وكائنات حية .
(٦) اوجع : آلم .

فأحسنوا القتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، وليحد أحدكم شفرته ، وليرح ذبيحته » .

كيف نعنى بدواب الركوب

من حق الدابة المعدة للركوب أن لا يركب عليها ثلاثة فى آن واحد . فقد أخرج الطبرانى فى الأوسط عن جابر قال : « نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يركب ثلاثة على دابة ، وأخرج ابن أبى شيبة أنه رأى ثلاثة على بغل ، فقال : « لينزل أحدكم ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن الثالث » وأخرج الطبرانى عن على ، قال : « **إذا رأيتم ثلاثة على دابة فارجموهم حتى ينزل أحدهم** » .

ومن المحرم فى الشريعة الإسلامية : وقوف الراكب على الدابة وقوفا يؤلمها ، فقد ورد فى سنن أبى داود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إياكم أن تتخذوا ظهور دوابكم منابر ، فإن الله إنما سخرها لكم لتبلغكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس » .

ولا يجوز الركوب على ما لم يخلق للركوب كالبقرة ، قال القاضى أبو بكر بن العربى : « لا خلاف فى أن البقر لا يجوز أن يحمل عليها ، وذهب كثير من أهل العلم إلى أن المنع من ركوبها نظرا إلى أنها لا تقوى على الركوب ، إنما ينتفع بها فيما تطيقة من نحو اثارة الأرض وسقى الحرث »

هذا مع عدم تكليف أنثى الحيوان الحامل بما لا تستطيعه فهى فى هذه الفترة تحتاج إلى الراحة .

ولا يجوز أن يكون مقود الدابة ضارا بها . فقد ورد فى الصحيح : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال « لا يبقين فى رقبة بعير قلادة من وتر إلا قطعت » فذهب بعض أهل العلم فى فهم الحديث مذهب الرحمة بالحيوان وقال : إنه أمر بقطع القلائد من أعناق الدواب مخافة اختناق الدابة بها عند شدة الركض لأنها تضيق عليها نفسها .

وحرمت الشريعة الإسلامية الإساءة إلى الحيوان بتحميله من الأثقال ما لا يطيق . وكان الصحابة الكرام يعرفون أن من حمل دابة ما لا تطيق حوسب على ذلك يوم القيامة . فقد روى عن أبي الدرداء أنه قال لبعير له عند الموت « يا أيها البعير لا تخاصمني عند ربك .

* * *

ومن الفنون التي تشيع هنا وهناك ما لا يتم إلا بتعذيب الحيوان بإغراء بعضه على بعض وتهييجه ، كمصارعة الثيران ، ومصارعة الديكة ، والكباش ونحو ذلك ، أو نصبه غرضا للرماية والصيد أو قتله بدون فائدة ، ولا منفعة ، أو إرهاقه بالعمل الشـاق وقد اعتبرت الشريعة الإسلامية ذلك من الفعل المحرم الذي يستحق العقوبة . فقد روى عن ابن عباس قال : « نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن التحريش بين البهائم » رواه أبو داود والترمذي .

آدابُ الطريق

ما من كبيرة أو صغيرة إلا وضع لهـا الإسلام النظام الصحيح ، والحدود السليمة التى تمنع الأذى والضرر عن كل إنسان ، حتى الجلوس والوقوف والمشى فى الطريق وضع لها الضوابط والقواعد الصحيحة .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إياكم والجلوس فى الطرقات . فقالوا : ما لنا بدٌّ[1] . . إنمـا هى مجالسنا نتحدث فيها .

قال النبى : فإذا أبيتم إلا المجالس فأعطوا الطريق حقها . قالوا : وما حق الطريق ؟ قال :

غض البصر ، وكف الأذى[2] ، ورد ، السلام والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » :

• وحق الطريق على السائر فى الطريق أن يخفض بصره ، فلا ينظر إلى المحرمات ، لأن الطريق يمشى فيه البنات والنســاء ومداومة النظر إليهن يؤذيهن ، وفيه اعتداء على حرمات الناس ، ومخالفة لتعاليم الدين .

وقال تعالى فى هذا الصدد :

« وقل للمؤمنين يغضوا [3] من أبصارهم »

---

(١) لا غنى لنا عنها   (٢) منع الضرر

(٣) يغض من بصره : يخفض بصره ولا يحملق

أما النظر إلى خضرة النبات وزرقة السماء فإنه يشرح الخاطر ويسر النفس ، ويذكرنا بعظمة الخالق .

ومن حق الطريق وآدابها أن يمنع الجالس فى الطريق أذاه عن كل من يمر فى الطريق ، بأن يكون مهذبا فى ألفاظه ، لا ينطق بقول جارح يؤذى المشاعر ، ولا ينطق بعبارات تجرح شعور البنات والسيدات ، ولا يسخر من بعض الناس لعيب فى أجسامهم أو لسوء ثيابهم ، كما يفعل بعض الشبان الذين يقفون فى مفترق الطرقات .

* * *

ومن حق الطريق . ألا نلقى الأقذار أو ماء الغسيل أو قشر الفاكهة فيها ، ومن حقها أيضا ألا نجلس فيها فنقيد حرية الساكنين فيها أو نمنعهم من قضاء مصالحهم .

ومن حق الطريق أن نرد السلام فإذا ألقى أحد المارين السلام على من يجلس فيها ، وجب عليه رد التحية أو بأحسن منها .

ومن حق الطريق الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، كأن يدعو الجالس فى الطريق إلى مساعدة محتاج أو معونة ضعيف أو إزالة الأذى عن الطريق ، أو إرشاد الضالين أو التائهين .

ومن حق الطريق أيضا أنه إذا رأى أحدنا شخصا يعتدى على آخر منعه من عدوانه . وإذا رأى سائقا يحمل حيوانا فوق قدرته أو يؤذيه نهـاه عن قسوته . وإذا وجد بائعا يغش المشترين نهاه عن غشه .

الإسـلام دين السـلام

يقيم الإسلام بين أبنائه وبين الناس العلاقات على أساس من الأخوة والمحبة ، ويكره كل ما يشوه هذه العلاقات أو يسبب ضعفها .

و يقيم علاقات المسلمين بين أبنائه وبين الناس على أساس من التسامح والاحترام المتبادل ، من غير عصبية ولا إثارة المشاحنات .

لهذا قال الله سبحانه وتعالى :

« يـأَيُّها الَّذِين آمنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كافةً » .

ويقول تعالى :

« وإنْ جَنَحُوا للسَّلمِ فَاجْنَحْ لهَا ، وَتَوَكلْ عَلَى اللهِ إنَّهُ هُو السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » .

وفى موضع ثالث يقول :

« ولَا تسْتوِى الْحَسنةُ وَلَا السَّيِّئة ادْفعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَن فإذا الَّذِى بَيْنك وَبَيْنَهُ عدَاوَةٌ كأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ، وَمَا يُلقَّاها إلَّا الَّذِين صَبرُوا ومَا يُلقَّاها إلَّا ذُو حظٍّ عَظِيم » .

ترشد هذه الآية إلى بيان ما أمر الله به من حسن المعاملة مع صنوف الخلق ، الصغير منهم والكبير ، فإن أغضبوه صبر ، وإن شتموه حلم ، وإن أساءوا إليه عفا عنهم ، فإن فعل ذلك صار العدو حبيبا والبعيد عنه قريبا . وهذا ما عناه الله تعالى عندما قال :

« ادْفعْ بِالَّتى هِىَ أَحْسَن فإذا الَّذِى بَيْنك وبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كأَنَّهُ وَلِىٌّ حمِيم » .

أى خذ بالحسنة التى هى أحسن وادفع بها السيئة ، فإن ذملك إنسان مدحته أو اعطيته ، قاده ذلك إلى محبتك ، وأصبح صديقا حميا . وهــذا بدوره يؤدى إلى الصفاء والمحبة بين الناس .

* * *

والإسلام لم يشرع الجهاد إلا دفاعا عن المؤمنين وعن دينهم وكيانهم ولم يشرعه لإكراه على دين أو لغاية انتقامية أو لرغبة استعمارية ، ولكن أمر به عند التأكد من أن العدو ترك السلم ولجأ إلى الحرب .

والإسلام عند ما يلجأ إلى القوة يلجأ إليها كوسيلة لمنع الحرب ، على أساس المبدأ القائل « استعد للحرب لتمنع الحرب » . والإسلام عند ما أباح الجهاد منع قتل الضعفاء من الأطفال والنساء والشيوخ والعباد المنقطعين للعبادة ، ومنع إتلاف الزرع والضرع عند القتال .

وإذا اختلفت طائفتان من المسلمين فقد شرع الله حكمه فى ذلك قائلا :

« وإن طَائِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ، فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى ٱلأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّى تَفِىءَ إِلىٰ أَمْرِ اللهِ ، فإن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وأَقْسِطُوا ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ . إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ واتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ »

طائفتان : جماعتان
بغت : اعتدت
اقسطوا : اعدلوا

والمقصود بهذه الآية الكريمة إذا اختلفت طائفتان من المسلمين ، ووقعت بينهما حرب ، وجب التدخل بينهما بالصلح . فإذا قبلت إحداهما الصلح ورفضت الأخرى ، وجب الوقوف ضد التى رفضت حتى توافق على المصالحة . ولا يجوز أن يجعل رفضها للصلح أول الأمر سببا فى التشدد عليها ، بل يجب على المصالح أن يكون العدل رائده ، غير متأثر بأى شىء .

والمؤمنون جميعا إخوة ، جمع بينهم الإسلام ، فلا يجوز أن يسكت أخ على خصام وقع بين أخوين ، وحينما يتدخل ليصلح بين مختلفين ، فإنه يصلح بين أخويه ، فلا يحيد عن طريق الحق والعدل ، وليتق الله فى حكمه ، فالله يرحم من يعدل .

تقاليد الحروب وآدابها

ومعاملة الأسرى

قبل الدعوة الإسلامية لم يكن للعرب تقاليد يتبعونها فى حروبهم وقتالهم مع عدوهم ، بل كانت شريعة القوى والضعيف هى السائدة بينهم ، والويل للمهزوم .

وعندما جاء الإسلام تأثرت حيـــاة العرب كلها ، وتأثرت الحرب بالعقائد الإسلامية وتعاليم القرآن ، وأصبحت للحروب عندهم تقاليد ، تتفق مع الجوانب الإنسانية ، وأصبحت الحرب دفاعا عن دينهم ووطنهم ، أو دفعا لضرر أو خطر ، مع تجنب الإضرار بالنساء والأطفال والشيوخ ، مع عدم التعرض لرجال الدين فى الأديرة والكنائس ، وعند النصر لا إكراه فى الدين ، ويتضح ذلك من الآية الكريمة التالية :

« وَأَعِدُّوا لَهُمْ ما اسْتَطَعْتُم مِن قُوَّة ومِن رباطِ(١) الخيل تُرهِبُونَ به عَدُوَّ اللهِ وعدُوكُم(٢) وآخَرِينَ مِنْ دُونِهِم(٣) لاتَعْلَمونَهُم ، اللهُ يعْلَمُهُمْ ،

---

(١) الرباط : اسم للخيل التى تعد للقتال ، والمراد هنا القوة التى ترابط على حدود البلاد لتدافع عنها .

(٢) ترهبون : تخيفون .

(٣) من دونهم : من غيرهم من المنافقين الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر .

وما تُنفِقُوا من شيءٍ (١) في سبيلِ اللهِ يُوفَّ إليكم(٢) وأنتم لَا تُظْلَمُون(٣) وإنْ جنَحُوا(٤) لِلسَّلْم (٥) فاجْنحْ لهَا وتَوكَّلْ علَى اللهِ ، إنَّه هُو السَّمِيعُ(٦) العَلِيمُ(٧) ، وإنْ يُرِيدُوا أنْ يَخْدعُوكَ(٨) فَإنَّ حسْبَكَ اللهُ(٩) ، هُو الَّذِى أيَّدك بِنصرِه(١٠) وَبِالمُؤْمِنِين(١١) ،وألَّفَ بين قُلوبِهم(١٢) . لَوْ أنفقتَ مَا في الأَرْضِ جَمِيعًا مَا ألَّفْتَ بين قُلوبِهم (١٣) ، ولَكِنَّ اللهَ ألَّفَ بَيْنَهم ، إنه عزِيزٌ حكِيمٌ(١٤) .

---

(١) وما تنفقوا من شيء لإعداد القوة من مال أو غيره قليل أو كثير .

(٢) يوف إليكم : تنالون جزاءه كاملا .

(٣) وأنتم لا تظلمون : لا تنقصون شيئا من جزاء الإنفاق .

المعنى : علينا أن نكون مستعدين دائما للقتال ، وأن نمد أنفسنا بكل أنواع القوة . الاستعداد للقتال يخيف الأعداء ويجعلهم لا يجرأون على الاعتداء .

(٤) جنحوا : مالوا ورغبوا .

(٥) للسلم : للصلح والسلام .

(٦) هو السميع : يسمع كل ما يقوله الكفار . والمقصود : إن مال الأعداء إلى مسالمتكم بعد ما رأوا قوتكم فسالموهم .

(٧) العليم بما يسرون ويضمرون .

(٨) أن يخدعوك : بميلهم إلى السلم وإظهاره خداعا ، وهم ينوون الحرب والقتال .

(٩) فإن حسبك الله : فسيكفيك الله شرهم بنصرك عليهم .

(١٠) أيدك الله بنصره : قواك ويعينك على الانتصار كما في غزوة بدر

(١١) وبالمؤمنين : من اتبعوك من المهاجرين والأنصار .

(١٢) وألف بين قلوبهم : فاجتمعوا على محبتك ، وأحب بعضهم بعضا بعد الذى كان بينهم من الضغائن والعصبية .

(١٣) ما ألفت بين قلوبهم : ما وفقت بينهم .

(١٤) عزيز : كامل القدرة ، لا يستعصى عليه شيء مما يريده . حكيم : يعلم كيف يفعل ما يريده ، منزها عن الخطأ .

يـأيها النبيُّ حَسبُك الله (١) ومَنِ اتَّبعك من المؤمنين . يَـأيها النبيُّ حَرِّض المُؤمنين على القِتال(٢) إنْ يَكن مِنكُمْ عِشرون صَابرون يَغلِبوا مِائتين وإنْ يكن منكم مِائةٌ يَغْلِبُوا أَلفاً من الذين كَفرُوا بـأَنهم قومٌ لا يفْقهون . الآنَ خفَّف اللهُ عَنكُمْ ، وعلم أَنَّ فِيكُمْ ضَعفاً ، فإن يكنْ منكم مِائةٌ صابرةٌ يَغلِبوا مِائَتين ، وإنْ يَكنْ منكم أَلفٌ يَغلِبوا أَلْفَيْن بإذن الله واللهُ مَعَ الصَّابرِين » .

فى هذه الآيات دعوة صريحة إلى إعداد العدة على قدر المستطاع ، والتأهب بالقوة والسلاح وتحصين الحدود ، وتشديد الحراسة عليها ، وتشييد القلاع بها . وليس الغرض من هذه الدعوة الاعتداء ، وإنمـــا الغرض منها إرهاب الأعداء ، حتى لا يقدموا على حرب أو قتال وفى سبيل هذا السلم القوى يجب أن نبذل الأموال .

وفى الآيات بعد ذلك دعوة صريحة إلى السلام ، وبيان لمـــا يجب أن يتبع ، إن جنح الأعداء إليه ، كما أن فيها حثا للمؤمنين على القتال ، دفاعا عن الحق ، وجهادا فى سبيل الله وإعلاء كلمته .

* * *

وفى العام الثالث عشر من الهجرة وجه المسلمون الجيوش لفتح بلاد الشام التى كانت خاضعة يومئذ لدولة الروم ، واختاروا لقيادتها مشاهير

---

(١) يكفيك أن يكون الله ناصرك .

(٢) حرض المؤمنين على القتال : حثهم عليه ، ورغبهم فيه بكل ما أمكن من الأمور المرغوبة .

القواد مثل عمرو بن العاص ، وأبى عبيدة بن الجراح ، ويزيد بن أبى سفيان .

ولما وجه يزيد بن أبى سفيان خرج أبو بكر يشيعه ماشيا ، ثم وصاه بالوصية الآتية لينتفع بها فى قتاله مع الروم .

« إذا قدم عليك رسل عدوك فأكرمهم ، وأقلل مكثهم حتى يخرجوا من عسكرك وهم جاهلون به ، وأنزلهم فى ثروة عسكرك[1] . وامنع غيرك من محادثتهم ، وكن أنت المتولى لكلامهم .

ولا تجعل سرك لعلانيتك ، فيختلط أمرك ، وإذا استشرت فاصدق الحديث تصدق المشورة .

واسمر بالليل فى أصحابك تأتك الأخبار ، وتتكشف عندك الأستار ، وأكثر حرسك ، وبددهم فى عسكرك ، وأكثر مفاجأتهم فى محارسهم[2] بغير علم بك ، فمن وجدته غفل عن محرسه فأحسن أدبه ، وعاقبه فى غير إفراط ، وأعقب بينهم بالليل[3] ، واجعل النوبة الأولى أطول من الأخيرة ، فإنها أيسرهما لقربها من النهار .

ولا تخف من عقوبة المستحق ، ولا تبالغ فيها ، ولا تسرع إليها ، ولا تغفل عن أهل عسكرك فتفسده ، ولا تجسس عليهم فتفضحهم ، ولا تكشف الناس عن أسرارهم[4] ، واكتف بعلانيتهم ، ولا تجالس العباثين ، وجالس أهل الصدق والوفاء .

---

(١) الثروة : العدد الكثير .

(٢) محارسهم : أماكن حراستهم .

(٣) أعقب بينهم : اجعلهم يتناوبون العمل فيأتى الرجل عقب الآخر .

(٤) لا تكشف الناس عن أسرارهم : لا تكرههم على إظهارها .

وقال أيضا :

« واصدق اللقاء ، ولا تجبن فيجبن الناس ، واجتنب الغدر ، فإنه يقرب الفقر ، ويدفع النصر[1] ، وستجدون أقواما حبسوا أنفسهم فى الصوامع فدعهم وما حبسوا أنفسهم له » .

هذه صور تصور التقاليد الحربية عند العرب بعد الإسلام ، وتصور كيف جمعت بين القوة والحزم والجوانب الإنسانية .

---

(١) يدفع النصر : يزيحه ويبعده .

سماحة الإسلام ومعاملة الأسرى

في ليلة من ليالى الصيف التقى الصليبيون بجنود صلاح الدين الأيوبي فقتل من قتل ، وجرح من جرح ، وأسر من أسر ، وعادت فلول الصليبين إلى معسكرهم تجر أذيال الفشل والخيبة ، وتقول « لهيلانة » التى كانت فى انتظارهم : إن زوجها قتل فى سبيل الشرف والجهاد ، فصرخت « هيلانة » صرخة مدوية مفزعة ، ثم اندفعت تبكى بكاء حاراً ، وتقول :

لقد مات زوجى ! ! لقد فقدته إلى الأبد . . . كيف أعيش مع غيره ؟ وكيف تطيب لى الحياة من بعده ؟

فصاح أحد الجنود قائلا :

— اصبرى يا « هيلانة » إن روح زوجك صعدت إلى السماء تاركة لك فى ولدك الصغير العزاء والسلوى . . . جاهدى من أجل ولدك . . . إنه ابن الحبيب الراحل . . . أسعديه يا هيلانه تسعد روح زوجك فى السماء .

ثم دخلت « هيلانة » خيمتها تكفكف دموعها وتضم وحيدها ، وهى تقول :

— ولدي الحبيب . . . دعنى أضمك إلى صدرى يا رمز سعادة ولت . . . فيك أودع آمالى . . . وبين يديك تنبت أحلامى . قاتل الله الحرب . . . قاتل الله الحرب التى حرمتنى طلعة الزوج وبسمة الحبيب . ثم نامت هيلانة بجانب طفلها واستسلمت له .

وقبيل الفجر تسلل جنديان من جنود صلاح الدين ، واختطفا الطفل الصغير الراقد بجوار أمه « هيلانة » وهرولا[1] به فى الظلام إلى خيمتهما .

---

(١) هرولا : أسرعا .

وفى أثناء سيرهما صاح أحدهما قائلا :

ماذا ترى السلطان صلاح الدين قائلا لنا ؟ أتراه راضياً عن عملنا ؟ وهو الذى أوصانا ألا نعرض للنساء والأطفال ، وألا نمس الأعزل بسوء ، وأن ندع القسوس ، ولم يسمح لنا إلا باختطاف المحاربين والجند ، أفلا تحسبه يكره ما أتينا هذه الليلة ، ويكون غضبه علينا أضعاف رضاه عنا يوم خطفنا ذلك القائد من فراشه ؟

فأطرق الثانى كأنما كان يفكر فى غضب السلطان ، ويبحث عن سبيل الخلاص من هــذه الوهدة[1] التى سقطا فيها . ثم رفع رأسه فجأة وقد أشرق وجهه بنور الأمل وقال له :

لماذا يغضب ؟ أليس الله قد أباح لنا أن نرد العــدوان بمثله ؟ أما هاجمونا هم بمثل هذا أول مرة ، وروعوا[2] نساءنا وسرقوا أطفالنا ، فلما صبرنا عنهم وترفعنا عن مقابلتهم بمثل فعلهم ، ظنوا ذلك عجزاً منا فأوغلوا[3] فى عدوانهم الآثم الدنىء ؟ أفندعهم يفعلون ما يريدون ؟

واطمأن الثانى بحجة زميله ، وارتاح لفعلته ، وأخذا يواصلان المسير حتى وصلا إلى خيمتهما ، دون أن يراهما أحد .

أما « هيلانة » فاستيقظت فجأة من نومها ، ومدت يدها لتحتضن طفلها ، فلم تجده فى مكانه ، فهبت مذعورة تصيح وتولول وتقول :

ولدى !! . . . ولدى !! . . . أين ولدى ؟ هل اختطفه العرب ثم أكلته الذئاب الضارية الجائعة ؟ . . . ابحثوا لى عن ولدى . . . بالأمس

---

(١) الوهدة : المكان المنخفض ، الزلة .
(٢) روعوا : أفزعوا وخافوا .
(٣) أوغلوا : أمعنوا وأسرعوا .

كنت أندب الزوج ، واليوم أندب الزوج والابن معاً . . . واحسرتاه . . . واحسرتاه . . .

ويقبل الصليبيون نحو هذه الزوجة المسكينة والأم الثكلى[1] فتصيح قائلة :

ساعدونى وابحثوا لى عن ولدى . . . إنه قلبى وقرة عينى .

ويراها قائد الحملة ، فيرق لها ، ويسمع لشكاتها ، ويتأثر لبكائها وحزنها ، ثم يشير عليها بالذهاب إلى صلاح الدين .

اذهبى أيتها المرأة الجازعة إلى صلاح الدين ، فسيرد طفلك ، وسيطفىء نار حزنك ، إنه رجل شريف ومحارب نبيل .

وتتردد المرأة وتبدو عليها الحيرة ، ويمضى فى حديثه قائلا :

لقد وقعت أنا نفسى فى أسر صلاح الدين ، فلقيت فى أسره الرحمة والنبل وكرم النفس وعلو الهمة ، وخرجت من الأسر ألهج[2] بما لقيت من الإعزاز والإكرام . . . وانطلقت الأم الوالهة الجازعة إلى صلاح الدين ، عملا بمشورة القائد الفرنسى ، ولم تلبث أن مثلت[3] بين يدى القائد المسلم العظيم ، فأفضت بين يديه جملة حالها ومبعث حزنها .

ويجيبها صلاح الدين :

أيتها المرأة ، إن شعار المسلمين قتال شريف ، بلا غدر ، وبلا خيانة . . . إن الأطفال والشيوخ والنساء والمرضى لا عمل لهم فى حرب تشب نارها بين الرجال الأقوياء .

---

(١) الثكلى : الحزينة الباكية لفقد وحيدها .

(٢) ألهج : أردد فى لهفة (أتحدث مولعاً) .

(٣) مثلت : وقفت وشخصت .

ثم يصيح فى عسكره :

ويل لمن خالف أوامرى ، واختطف طفل هذه المرأة ، على بالطفل وسيلقى خاطفه جزاءه .

ويحضر الطفل ، فتضمه أمه الجازعة ، وتنهمر دموع فرحها ، فتبلل قبلاتها التى تغمر بها فمه وخديه وجبينه .

وإذ هى على هذه الحال ، تسمع صوتاً لأسير ينادى :

أريد مقابلة السلطان ! !

وتتلفت المرأة نحو الصوت وتتسمع لنبراته ، الصوت صوت زوجها الحبيب ، ولكن زوجها — وقد نعوه إليها[1] — قد مات ، فكيف يحدث هذا ... أيكون هو ؟ ويسمح للأسير بالدخول ، وتكاد المرأة تسقط على الأرض لفرط ما أصابها من دهش ... إنه زوجها الحبيب إنه حى ... لم يمت كما نعوه لها ، وتصيح فرحة :

زوجى الحبيب على قيد الحياة ، لقد ظلموا هؤلاء العرب الأمجاد ، لقد نعوه إلى قائلين :

« لقد قتله العرب فى أسره » لله ما أظلم قومى وما أكذبهم ! !

ويتعانق الزوجان ، وتنهمر الدموع ، ويطول العناق بعد لوعة الفراق ، ثم يتكلم الأسير فيقول :

أيتها الزوجة الحبيبة ، لقد وقعت فى أسر قوم كرام النفوس أعزاء ، لا يقتلون أسيراً ، ولا يذلون عزيزاً ، إنهم أيتها الزوجة الحبيبة محاربون شرفاء .

---

(١) نعوه إليها : أخبروها بموته .



ويطلق صلاح الدين سراح هذا الأسير ، فيخرج مع طفله وزوجته إلى الأمل الباسم ، وإلى النور المشرق ، بعد اليأس والظلام .

ثم تسأل الزوجة زوجها :

ماذا أنت فاعل ؟

ويجيبها الزوج :

إلى قريتنا فى أوربا .

ثم تتوقف الزوجة عن المسير ، وتقول لزوجها ضارعة :

إلى قريتنا ! ! لا ، يا عزيزى ، لقد التقيت هنا بولدى بعد يأس ، ولقيتك هنا بعد أن نعاك الناعى الكذوب . . . دعنا بالله عليك نقضى بقية العمر فى ظل طهارة هذه النفوس السليمة العزيزة الكريمة النبيلة .

معاملة الحاكم والمحكوم

قامت أمة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، تحكم أمورها بكتاب إلهى ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، يخضع لأحكامه وتعاليمه الحاكم والمحكوم ، والسيد والعبد ، والذكر والأنثى ، والكبير والصغير ، والعظيم والحقير ، قامت دولة محمد على الحرية والإخاء والمساواة والأخلاق الفاضلة ، لا على الحاجات المادية والمعيشية فحسب .

لهذا السبب جمعت أمة محمد صلى الله عليه وسلم بين أجناس متفرقة وشعوب مختلفة فى اللون واللغة والعادات والتقاليد ، لا يربطها إلا المبادئ الصحيحة والأخلاق الكريمة .

وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى ذلك كله بقوله :

« يـأَيُّهَا الناسُ إِنَّا خلَقنَاكُم مِن ذَكَرٍ وَأُنْثَى ، وَجعلْنَاكُم شُعوباً وقَبَائلَ لِتَعارَفُوا ، إنَّ أَكْرَمَكُم عِنْد اللهِ أَتْقَاكُم » .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم .

« لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى » وقال صلى الله عليه وسلم : « كلكم لآدم وآدم من تراب » .

ألم يول النبى صلى الله عليه وسلم « بلالا » على « المدينة » وفيها أكابر القوم من الأنصار والمهاجرين ، وبلال عبد حبشى اشتراه أبو بكر وأعتقه ؟

ألم يجعل النبى عليه الصلاة والسلام « مهران الفارسى » واليا على اليمن

وهو فارسى الأصل ، ولما مات ولى ابنه من بعده ؟ وقد جرى أصحاب النبي وأتباعه على هذه السنة ، وكان حكام الولايات من أكثر الناس صلاحاً وإخلاصاً وعدلا

كان العدل فى محمد هو الأصل والأساس ، فالناس أمامه متساوون كأسنان المشط .

وكان النبي عليه الصلاة والسلام يستمد سياسته من قوله تعالى :

« وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل[1] » .

وحث النبي مراراً على العدل فى الحكم قائلا : « أشد الناس عذابا يوم القيامة من أشركه الله فى سلطانه ، فجار[2] فى حكمه » .

« وفى قوله : ما من أحد يكون على شيء من أمور هذه الأمة فلم يعدل فيهم إلا كبه[3] الله فى النار » .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدون من بعده ، مثلا عالياً فى تحقيق العدل ، كانوا يعدلون بين الناس حتى مع أنفسهم . حدث أن طلب رجل دينه من الرسول ، فأغلظ له القول ، فهم عمر بن الخطاب أن يضرب الرجل لغلظته مع الرسول ، فقال له صلى الله عليه وسلم :

يا عمر كنت أحوج إلى أن تأمرنى بوفاء الدين ، وكان هو أحوج إلى أن تأمره بحسن الطلب .

وسار الخلفاء الراشدون على النحو الذى سار عليه النبي صلى الله عليه وسلم ، فكانوا أيضاً مثالا حسناً للحاكم العادل .

---

(١) سورة النساء .

(٢) جار : ظلم

(٣) كبه الله فى النار : رماه وألقى به فيها .

شكا إلى عمر بن الخطاب فتى من مصر : إذ سبقت فرسه فرس ابن عمرو بن العاص والى مصر ، فاغتاظ فضربه بالسوط ، وقال له :

خذها وأنا ابن الأكرمين .

وذهب المصرى إلى الخليفة ليشكو ، فاستدعى عمر بن الخطاب عمروا وابنه من مصر ، وأمر المصرى أن يضرب ابن عمرو كما ضربه وأنب عمروا ، لأن ابنه لم يفعل ما فعل إلا اعتماداً على سلطة أبيه ، وقال كلمته التاريخية العظيمة : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا » ؟ .

ويروى عن السيدة عائشة رضى الله تعالى عنها : أن قريشاً أرادت أن يصفح النبي عن المرأة المخزومية التى سرقت فى عهد النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا :

لا يستطيع أن يشفع لها عند النبي فى ذلك إلا أسامة بن زيد ، لأنه أحب الناس إليه ، فذهبوا إليه ، وطلبوا منه أن يشفع لتلك المرأة .

وما إن بدأ « أسامة » الحديث مع النبي حتى تلون وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال :

أتشفع فى حد من حدود الله ؟

فقال له أسامة : استغفر لى يا رسول الله .

فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب فى الناس وبعد أن أثنى على الله قال :

أما بعد ، فإنما أهلك الذين من قبلكم ، أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد[1] ، وإنى والذى نفسى بيده — لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها »[2] .

---

(١) أخرجه مسلم .

(٢) الحد : ما فرضه الدين من عقوبة وجزاء

وكان عليه الصلاة السلام مثال الحاكم الذى يتابع أحوال أمته ، فكان يراقب ولاته ، ويحاسبهم على أموال الدولة والناس .

قال عليه الصلاة السلام : « ما من وال يلى شيئا من أمور الناس إلا أتى به يوم القيامة ، مغلولة يده إلى عنقه لا يفكها إلا عدله » .

وقد نادى الإسلام بالشورى ، واتخذها أساساً للحكم ، إذ قال سبحانه

« وَأَمْرُهُمْ شورَى بَيْنَهم » .

وعن أبى هريرة « رضى الله عنه » :

لم يكن أحد أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

وعلى هذا النحو من العناية بالشورى مضى الخلفاء الراشدون ، لقد استشار أبو بكر أصحابه فيمن يلى الأمر من بعده ، وكان يرجع إليهم فى اختيار الولاة والقواد ، وتسيير الجيوش ؛ وتوزيع الغنائم .

وكذلك فعل عمر بن الخطاب ، فلم يستقل دون أصحابه برأى فى أمور الخلافة ، فاستشارهم عندما طلب منه عمرو بن العاص الإذن بفتح مصر ، واستشارهم فيمن يقود جيوش المسلمين فى حرب فارس ، وأشاروا باختيار سعد بن أبى وقاص فاختاره ، كما جعل الشورى فى نفر من الصحابة ليختاروا من بينهم من يكون خليفة بعده .

والعمل بالشورى يحفظ حقوق الشعب ، ويضمن استقامة حكامه ، وحسن سير الأمور .

والشورى فى الوقت نفسه مظهر من مظاهر الديمقراطية والمساواة وحرية الرأى .

وفرض الرسول صلى الله عليه وسلم على العالم أن يعلم الجاهل ، وعلى الجاهل أن يتعلم من العالم .

وفرض على العالم ألا يمنع الناس علمه ، وألا يكتم ما عرفه بين تعاليم الدين وأسرار الكون ، حتى لا ينفرد بالعلم وحده ، وقد جاء ذلك فى قوله صلى الله عليه وسلم :

« من كتم[1] علما ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة » .

وقال أيضاً : « خيركم من تعلم العلم وعلمه » .

وكان النبى الكريم دائم الدعوة إلى نشر العلم ، وكان خلفاؤه وأتباعه من بعده يسيرون على نفس الطريق ، فقامت الحضارة الإسلامية على أساسين قويين هما : الإيمان والعلم .

وانتشر العلم فى ظل الإسلام ، وأصبح هو النور الذى يضىء العالم فى القرون الوسطى المظلمة ، وأصبح علماء العرب أساتذة العالم كله فى هذه الفترة من الزمان .

وبفضل العلم تقدمت الزراعة والصناعة وأصبحت أمة محمد صلى الله عليه وسلم فى تقدم ورقى ورفاهية .

---

(١) كتم : اخفى

المعـاملات المالية والتجارية
فى الإسـلام

المعاملات المالية والتجارية

قامت المعاملات المالية والتجارية فى الإسلام على أسس سليمة فى طليعتها الوفاء بالوعود والعقود .

نادى الإسلام بالوفاء بالعهد ، سواء ما يتعلق بالمال أو بغيره ، لأن الغدر يضيع الثقة والطمأنينة ، وينزع الثقة من النفوس ، وفى ذلك اختلال لنظام المعاملات بين التجار والناس جميعاً . قال تعالى :

« يَـأَيُّهَا الَّذِين آمنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ . وقال عز وجل : « وَأَوْفُوا بِعَهدِ اللهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدهَا وَقدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ » .

إن الوفاء بالوعد والعهد ركن من أركان الأمانة ، وقوام الصدق ، ودعامة من دعامات الثقة بين الناس فى عالم التجارة .

* * *

وبجانب ذلك نادى الإسلام بالسماحة فى البيع والشراء وعدم التلاعب بالكيل والميزان ، كما دعا إلى عدم احتكار السلع وخزنها بغية استغلالها لربح غير مشروع .

ووضع الإسلام آدابا للبيع والشراء ، لتحسن المعاملات بين الناس قال النبى صلى الله عليه وسلم :

« رحم الله رجلا سمحاً إذا باع ، وإذا اشترى ، وإذا قضى ، وإذا اقتضى . »

ويبشر النبي صلى الله عليه وسلم برحمة من الله الرجل الكريم النفس ، السهل المعاملة ، الذي إذا باع كان سهلا لينا ، لا يغالى فى الثمن الذى يتقاضاه ، بدعوى أن التجارة حرة .

وإذا اشترى لا يبخس الناس أشياءهم ، ولا يثقل على البائع بإطالة المساومة ، ولا يحقر من قيمة بضاعته ، ولا يضيع وقته بأن يطلب بضاعة مختلفة وهو لا يعتزم الشراء .

ويدعونا الإسلام أن نؤدى الدين بسماحة ، وأراح الناس من عناء المطالبة بما لهم ، مع شكرهم ، مقدرا حسن معروفهم .

ويدعونا الإسلام بأن نطالب بالدين ، من غير أن نشهر بالمدين أمام قومه وأهله والناس ، ولا نسرع إلى القضاء ، فإن حل ميعاد الدين والمدين فى حالة عسر نمهله إلى وقت آخر .

قال تعالى :

« وإن كانَ ذُو عُسرةٍ فَنَظِرَةٌ إلى مَيْسَرَةٍ » .

فهذه التعاليم الإسلامية تدعو الناس إلى حسن المعاملة والسماحة فى البيع والشراء والوفاء بالدين والمطالبة به ، فمن واجب المدين أن يعمل ما استطاع على أداء الدين فى ميعاده ، وألا يحاول التخلص والتهرب منه ، وقد أوضح الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم هذه المعاملة بقوله :

السمح : السهل اللين   قضى : أدى ما عليه من دين وحق ، اقتضى . طالب بحقه .

« من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه ، ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله » .

* * *

أما بخصوص الكيل والميزان ، وهذا أمر مرتبط بمعاملاتنا التجارية كل الارتباط ، فقال فيه سبحانه وتعالى :

« وأوفُوا الكَيْلَ إذا كِلْتُم وزِنُوا بالقِسْطاطِ المُستَقيم ، ذلك خَيرٌ وأَحسَنُ تَأْويلا » .

فى هذه الآية الكريمة أمر الله التجار وكل بائع أن يفى الكيل والميزان .

وعدم مراعاة ذلك فيه سرقة وخيانة ومخالفة للعهد الذى تقتضيه عمليات البيع والشراء . أما إيفاء الكيل والميزان فأمر يكسب صاحبه شهرة الأمانة بين الناس ، ويحقق الثقة بين البائعين والمشترين ، فيعود ذلك بالخير والرواج لكل الناس .

وفى وصف الذين يغشون فى الكيل والميزان قال تعالى :

« وَيلٌ لِلمُطفِّفينَ الذينَ إذَا اكْتالوا على النَّاسِ يَسْتَوْفُون ، وإذَا كالوهُمْ أَوْ وَزَنوهمْ يُخْسِرُونَ » أى إذا أَخذُوا مِنْهُم مكيلًا يأْخذُونَهُ وافِياً كامِلًا . وإذا أَعْطَوْهُمْ مَكيلًا أَوْ مَوْزُوناً يُعْطونَهُ ناقِصًا .

وكما يكون التطفيف فى الكيل يكون فى بقية الوحدات الوزنية والقياسية إن تطفيف الكيل والميزان ، واختلاس أموال الناس بهذا العمل الدنىء لا يصدران إلا عمن يظن أنه لا يبعث يوم القيامة ، وأنه لا يحاسب على عمله ، ولهذا وبخهم الله شر توبيخ . ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم

عظيم ، إنهم يعثون ويحاسبون على النقير والقطمير[1] والحبة والذرة ، ويساقون إلى النار وبئس القرار .

* * *

ويلجأ بعض التجار إلى جمع السلع وخزنها وحبسها ، ليتحكم فى أسعارها عندما تقل فى الأسواق .

هذا النوع من الاحتكار غير مرغوب فى الإسلام ، فقد روى أبو مسلمة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

« من احتكر يريد أن يغالى المسلمين فهو خاطىء ، وقد برئ من ذمة الله » .

وعندما أباح الله تعالى التجارة ذكر وصف التراضى فيها ، بين المشترى مختارا فى الشراء ، وبين البائع مختارا فى البيع ، وكلاهما مختار فى تحديد الثمن الذى يشترى به أو يبيع ، فإذا كان المشترى مضطرا إلى الشراء بأى ثمن ، فإن عنصر التجارة كما يراها الإسلام لا يكون قائما ، إذ تفقد أعظم عناصرها وهى حرية التبادل والبيع والشراء ، لأن الاحتكار والتجارة شيئان متناقضان ، لأن التجارة الإسلامية تقتضى التراضى ، والاحتكار لا يعتمد على الرضا ، بل يعتمد على استغلال حاجتك إلى الأشياء ، فتدفع ما يملى عليك .

والأحاديث كثيرة فى أن الاحتكار حرام ، مهما تكن الأصناف التى تكون موضع الاحتكار ، ما دام حبسها يضر بالناس ، سواء أكانت طعاما أم ثيابا أم غيرهما .

وقد اشترط الإسلام ليتحقق الاحتكار ثلاثة شروط : أولها أن يكون قد انتهز فرصة الغلاء واختزن السلع لبيعها بأثمان فاحشة . والشرط الثانى

---

[1] النقير : النقرة فى ظهر النواة
القطمير : القشرة الرقيقة فى النواة
} والمراد التافه الحقير

أن يتم الإحتكار والاختزان فى فترة احتياج الناس إلى هذه السلع . والشرط الثالث أن تكون السلع المحتكرة تزيد عن كفايته وكفاية من يعولهم لمدة عام كامل . فإذا توافرت هذه الشروط الثلاثة فإن احتكار التاجر لسلعة أو مجموعة من السلع يكون إثما وعملا منافيا للدين ، لوجود الضرر الذى يحل بالناس بسبب ذلك ، إذ تباع السلع بأسعار مرتفعة ، لا تتناسب مع قيمتها ، ولا تلائم قدرة الجماهير على الشراء ، ولأن الربح فى هذه الطريقة كسب نتيجة الاختزان والانتظار . والكسب بالانتظار حرام لأنه يشبه الربا .

* * *

ويعمد بعض التجار إلى ترويج بضاعته الرديئة الكاسدة بالحلف على جودتها وسلامتها من العطب ، وهو يعلم أنه كاذب فى إيمانه وأن بضاعته غير جيدة ، هو يلجأ إلى الحلف لكى يصدقه الناس ويقبلوا على شراء بضاعته ، فتروج فى البداية : ولكن سرعان ما يعرف الناس حقيقة هذه البضاعة وقيمتها فيمتنعون عن معاملته ، فتكون نهايته الإفلاس . هـذا فضلا عن غضب الله عليه ، وفى هذا يقول النبي وهو أحسن القائلين :

« الحلف منفقة للسلعة ، ممحقة للبركة (عن أبى داود .)

أى أنها تروج السلعة فتباع بثمن كبير ، ولكنها تنزع البركة وتضيعها .

ونرى بعض التجار يخفون عيوب سلعهم عن المشترى ، أو يظهرون الجيد ويخفون الردىء .

وبعض الباعة يخلط الطيب من السلع بالردىء ، أو يضيف إلى السلعة ما ليس منها ، ليرفع من قيمتها أو يزيد من وزنها .

وهذا نوع من الغش ، فيه ظلم للمشترى يحزنه ويضره ، ويؤدى إلى التشاجر ويسىء إلى سمعة البائع ، ويصرف الناس عن معاملته ، مما يؤدى فى النهاية إلى إفلاسه . وقد جاء فى الحديث الشريف :

عن أبى هريرة رضى الله عنه « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر فى السوق على صبرة[١] طعام ، فأدخل يده فيها ، فنالت أصابعه بللا ، فقال الرسول :

ما هذا يا صاحب الطعام ؟

فأجابه :

يا رسول الله أصابته السماء[٢] فقال رسول الله :

ألا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس ؟ من غشنا فليس منا .

هذه أول حملة تفتيشية على مواد التموين يقوم بها النبى صلى الله عليه وسلم من أربعة عشر قرنا ، ويضبط فيها الغش ، ويحقق فيه ، ثم يصدر الحكم العادل على الغشاش ، فيخرجه من جماعة المسلمين ، ويرى نبينا الكريم فى ذلك الغش لواحد من المسلمين غشًّا لجميع المسلمين : من غشنا ليس منا .

* * *

ويلجأ بعض التجار إلى البيع بالمزادات العلنية ، يقيمها بعض التجار الغاشين ، ليوهموا البسطاء وعامة الناس بأنها بضائع رخيصة بسبب تصفيتها

---

(١) الكومة من الطعام مما يباع بلا وزن ولا كيل

(٢) أصابته السماء : نزل عليه المطر

أو لدواعى السفر أو بسبب الحجز عليها ، أو ما يشبه ذلك من أسباب مصطنعة لخديعة الناس . وفى كل ذلك إغراء وغش ، وهذا أكل لأموال الناس بالباطل ، وسرقه خفية فى ثوب تجارة حرة .

وكان من تمسك المسلمين بهذه التعاليم الإسلامية والمبادىء السامية أن الرجل إذا خرج من بيته يقول له أهله :

اتق الله ولا تكسب حراما ، فإنا نصبر على الجوع ولا نصبر على حر جهنم .

وكان الإمام البخارى صاحب الصحيح يتكسب من التجارة ، فأتاه من يساومه على شراء صفقة من الثياب بثلاثة عشر ألفاً درهم فلم يقبل ، فلما ذهب المشترى ندم البخارى على أنه لم يبعه تلك الصفقة بما دفع من المال ، ونوى أنه إن رجع باعه إياها بذلك المبلغ ، ولكنه عاد إليه فى اليوم الثانى ودفع إليه خمسة عشر ألفاً ، فأبى البخارى أن يقبض أكثر من ثلاثة عشر ألفاً ، فعجب المشترى من ذلك ، وقال له :

بالأمس دفعت لك هذا المبلغ فلم تقبل ، وأنا أدفع لك اليوم أكثر مما طلبته بالأمس ، فما شأنك ؟

فأجابه البخارى : إننى بالأمس كنت نويت أن أبيعك الصفقة بهذا المبلغ إذا عدت ، وإنى أخجل من الله أن أعود عن عزم قد عزمت عليه .

* * *

وحرص الإسلام على حماية الضعفاء ، فنهى عن تلقى الركبان[1] مثل ما يفعل ن التجار عندما يتلقى أحدهم الزارع الفقير قبل دخول السوق ليشترى ما معه من سلعة بثمن بخس فيلحق به الضرر ، ثم يبيع هذا التاجر نفسها للمستهلك بأضعاف ما دفع فيها فيضره كذلك .

---

(١) الركبان : الجماعة من راكبى الإبل

وكان أهم ما عنى به النبى صلى الله عليه وسلم هو حرية السوق وإتاحة الفرص المتكافئة للجميع ومقاومة كل سلطان يراد به التأثير بالامتياز .

فيقول الرسول : (لا تلقوا الركبان) .

وهذا الحديث يثبت عمل السوق ووظيفته - قبل أن يحددها الاقتصاد الحديث بمئات السنين - لأن فى السوق يتحدد السعر بين مجموع البائعين ومجموع المشترين ، والرجل من أهل القرى لا يعرف حقيقة السعر قبل أن يصل إلى السوق . ولهذا عملت الشريعة الإسلامية على حمايته بنهى التجار عن تلقى الركبان ، وبترك السوق تقوم بوظيفتها فى تحديد السعر المناسب للبضائع .

كما يحرم الإسلام ترويج الزائف من النقود ، لأنه ظلم يلحق الضرر بالناس الذين سيتداول النقد بينهم وهو ينشر الزور والفساد . ويقع الوزر على من قام بترويج هذه النقود ابتداء ، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم يقول :

(من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها ، لا ينقص من أوزارهم شيئا) .

ولذلك يرى فقهاء المسلمين أنه يجب على التاجر أن يتعلم النقد حتى لا يسلم إلى مسلم زيفا وهو لايدرى ، فيكون آثما بتقصيره فى تعلم ذلك العلم .

وعلى التاجر المسلم ألا يغالى فى الربح لأن الربح الفاحش فيه غبن على أخيه ، حتى أن بعض علماء المسلمين ذهب إلى أن الغبن يتحقق فيما يزيد على الثلث .

كما يرون ألا يسترسل التاجر فى الغبن ولو رضى المشترى لأن هذا المشترى قد أمن له وفى حديث الرسول صلى الله عليه وسلم : (غبن المشترى

— الذى أمنك — حرام) رواه البيهقى ، ولأن هذا الغبن يناقض الهدف الأصلى من التجارة فى الإسلام بأن تكون للتيسير على المجتمع لا استغلاله .

ويقول تعالى وهو أصدق القائلين :

« واشهدوا إذا تبايعتم » ولا شك أن الشهادة فى العقود انفى للشبهات وأحفظ لقيمة العقد .

يذكر الإمام ابن القيم فى كتابه (الطرق الحكمية) أن « لولى الأمر أن يكره المحتكرين على بيع ما عندهم بقيمة المثل عند حاجة الناس إليه ومن اضطر إلى طعام عند غيره ولا يحتاج إليه ، كان له أن يأخذه بقيمة المثل ، ولو امتنع عن بيعه له بقيمة المثل ، فأخذه منه بما طلب لم يجب عليه إلا قيمة المثل ، وذلك دفعا لضرر المحتاج وفى الوقت نفسه ، لا ضرر على المالك ولا ضرار ، ولو امتنع أرباب السلع عن بيعها مع حاجة الناس إليها وغالوا فى سعرها فللحاكم أن يسعر ، وأن يلزم بقيمة المثل وأن يبيع عليهم ، وله إلزام الصناع والتجار وأرباب الحرف القيام بأعمالهم بالأجر المناسب .

والقاعدة العامة فى الإسلام : أن التسعير تلجأ إليه الدولة كلما كان لصالح الناس ومنفعتهم العامة فيه، على أساس من العدل الذى هو قوام المعاملات فى الإسلام .

لذلك يجب على الحاكم ألا يسرف فى فرض الأسعار الجبرية لا سيا بالنسبة للسلع التى لا يضر بالناس حرية التعامل فيها لأن فى الإفراط فى التسعير تقييدا للمعاملات وإضرارا بالمنتجين أو التجار بغير خبرة أو ضرورة ملجئة ، ولأن النظام الإسلامى « لا يفرض التسعير فرضا عشوائيا فى كل حالة ، وعلى كل سلعة ، وبغير حكمه . وإنما جواز التسعير أو وجوبه كحكم

شرعى يدور مع علته وجودا وعدما . وعلته هى دفع الضرر عن الناس وتنظيم المعاملات على وجه عادل .

• أما كيف يتم التسعير فهذا ما يوضحه للمسلمين الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه بقوله : « يجب أن يكون البيع بأسعار لا تجحف بالبائع أو المبتاع ، فيجمع الإمام أهل السوق الذى يراد وضع سعر له ويحضر غيرهم معهم استظهارا على صدقهم ، فيسألهم كيف يشترون وكيف يبيعون فينازلهم إلى ما فيه لهم وللعامة حتى يرضوا .

• أى يجتمع ممثلو المنتج والتاجر والمستهلك والخبير المحايد لوضع السعر المناسب للسلعة أو السلع المراد تسعيرها لأن الإسلام لا ينحاز إلى طبقة دون أخرى ، والجميع فى أمة الإسلام إخوة فلا يرجح مصلحة أخ على أخيه ولا أظن أن هناك تشكيلا للجنة التسعير أرقى من هذا التشكيل الذى وضعه الإمام على رضى الله عنه ، ولا أبعد للشبهة .

حماية المال الخاص والعام

وأثره فى حيـــاة المسلمين

حث الإسلام المؤمن على الاعتدال، ونفره من أمرين. التبذير والتقتير، إذ فى الأول حفظ جسمه وماله، وفى الثانى حفظه من الألم والحسرة. قال تعالى :

« ولا تبذر تبذيرا، إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين، وكان الشيطان لربه كفورا » .

وقال تعالى :

« ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا (الاسراء — ٣٩) .

نهى الإسلام المسلم أن يبخل بماله، ولا ينفقه فى مواضع الإنفاق المشروعة، وكذلك نهاه أن يسرف فى الإنفاق ويتجاوزه إلى حد التبذير .

إن كلا من هذين النقيضين ذميم؛ لأن التفريط والإفراط فى كل أمر مجلبة للضرر وسوء العاقبة واستحقاق للوم والنقد .

مغلولة : الغل طوق من الحديد يجعل فى عنق المذنبين . وقد تضم اليد إلى العنق داخل الغل . وهو دليل على البخل .

ولا تبسطها : البسط ضد للقبض وهو كناية عن الإسراف والتبذير .

فتقعد : فتصير

ملوما : اللوم هو الكلام على وجه التخطئة والتوبيخ .

محسورا : نادما على سوء ما فعلت، وعاجزا عن الإنفاق وعن تدارك ما فات من فعل البر والخير لنفسك ولغيرك .

إن كلا من البخيل والمبذر يعطل حكمة الله تعالى التى من أجلها جعل الأموال قواما للناس ، وأساسا تبنى عليه مصالحهم ، ووسيلة صالحة يتوسلون بها إلى قضاء أعمالهم ، ونيل حاجاتهم . وهذا ما وصفه الشاعر العربى بقوله :

بين تبذير وبخل رتبة
وكلا هذين إن دام قتل

لقد أوجب الله سبحانه وتعالى أن يسيروا فى إنفاقهم لأموالهم الطريق الوسط المعتدل ، لا ينحرفون عنهم إلى الجانبين الممقوتين ، جانبى البخل والتبذير .

وفى هذا الصدد قال سبحانه وتعالى :

والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما (الفرقان — ٦٧)

الإسراف يفسد الأخلاق ، ويحطم القيم ، لأنه يؤدى إلى الترف والانحلال ، ويحمل على سلوك كل طريق للحصول على المال ، فتشيع فى المجتمع الوسائل المحرمة للكسب ، وقد تصير أمرا مقبولا ..

والإسراف إلى جانب أضراره الأخلاقية يحول دون توافر أهم وسائل التنمية الاقتصادية ، وهو تكوين رؤوس الأموال ، فهو يبددها ، ويضعها فى غير مواضعها ، وبذلك لا تقوى الأمة على مواجهة متطلبات البناء والقوة ، وتكثر فيها مشكلات البطالة ونقص ضروريات الحياة ، مما ينجم عنه عادة إثارة القلاقل والاضطرابات ، وهذا يضاعف من الأضرار وانتشار الخلل فى الحياة الاجتماعية .

فالإسلام حين حرم الإسراف إنما يريد مع حماية الأخلاق من أوزار

الترف والانحلال ، وأن يكون للأمة رصيدها الذاتى من الثروة التى تكون سلاحها فى القضاء على كل ما يعترض سبيل نهضتها وعزتها .

وإذا كان الإسراف محرما وعدم الإحسان فى الانتفاع بالمال محظورا ، فإن الوجه المقابل لهذا وهو التقتير والبخل وحبس المال عن التداول كالكنز والاحتكار محظور كذلك ، لأن الضرر الذى يسببه التقتير ونحوه كالضرر الذى ينجم عن الإسراف وما يشبهه ، فهذا وذاك خروج بالمال عن وظيفته فى الحياة ، فيصبح وسيلة للشر والفساد لا نعمة للعيش والبقاء .

لقد حرم الإسلام التقتير ، وذم الشح والبخل ، وحذر من الاحتكار والكنز ، ونهى عن تعطيل المال ووقف نموه وحركته ، فقد أمر القرآن بالتوسط فى الإنفاق ، وبين أن البخل شر ، وأن الآخذين به والداعين إليه قد جحدوا فضل الله ، وليسوا من الناجين يوم لقاه :

(الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما أتاهم الله من فضله وأعددنا للكافرين عذابا مهيناً) النساء — ٣٧ .

(ولا يحسبن الذين يبخلون بما أتاهم الله من فضله هو خيرا لهم) آل عمران — ١٨٠ .

وأما الذين يكنزون المال ويحبسونه عن التداول فهم آثمون ، وينتظرهم العذاب الأليم ، يوم لا ينفع مال ولا بنون ، حيث تكون الأموال التى جمعوها وكنزوها من وسائل هذا العذاب :

(والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون) التوبة — ٣٤ ، ٣٥ .

وهؤلاء الذين يحتكرون السلع ، أو يحتكرون استغلال الموارد العامة كما يحدث فى عقود الامتياز — هؤلاء يثرون دون جهد يتكافأ مع الثروة

التى آلت عن طريق حبس السلعة عن التداول الطبيعى فى الأسواق ، أو فرض الأسعار المرتفعة لعدم وجود المنافس فى الإنتاج .

وقد وردت عدة أحاديث فى النهى عن الاحتكار ، منها قوله صلى الله عليه وسلم : « لا يحتكر إلا خاطئ » رواه مسلم وأبو داود . و « الجالب مرزوق والمحتكر ملعون » رواه أبو داود .

وهؤلاء جميعا الأشحاء والكانزون والمحتكرون يخضعون فى سلوكهم لشهوة المال والشغف به لذاته ، وحب المال لذاته غاية الضلال ، فهو يعمى عن الحق ، ويستبيح كل المحرمات والمنهيات فى سبيل الحصول على المال .

ومما يدور فى نطاق حبس المال عن التداول وكأنه كنز له ، عدم استغلال مصادر الثروة ، أو ترك أموال ناقصى الأهلية دون استثمار ، فقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال .

« اتجروا فى أموال اليتامى حتى لا تأكلها الصدقة » رواه الترمذى .

إن التبذير والإسراف يبدد الثروة ، والكنز وما جرى مجراه يعطل المال عن التداول والحركة ، وفى هذا وذاك إضرار بمصلحة الجماعة ، لأنه فى كلا الحالين تتعرض الحياة الاقتصادية لما يعوق نموها فتتعرض الأمة من ثم لمختلف الأضرار والأخطار ، ولا ضرر ولا ضرار فى الإسلام ، ولذلك كان تحريم التقتير والتبذير وما إليهما حماية للمال ممن تملكه وحازه ، وكان هذا التحريم فضلا عن أثره فى تربية النفوس واستقامة نظرتها نحو المال ، حماية للنشاط الاقتصادى من الضعف والاستقرار الاجتماعى من القلق والاضطراب .

وأما حماية المال من غير مالكه فإن الإسلام حرم كل اعتداء على المال ، وأخذه له دون حق ، وقرر العقوبات والحدود الكفيلة بردع المعتدين ، حتى لا تمتد يد إلى مال بغير وجه مشروع .

مال الدولة

دعا الإسلام إلى العمل الشريف ، لأنه أساس ثروة الأمة وقوتها وعزتها ، وأساس الحياة الحرة الكريمة للأفراد والجماعات . وقد وضح الإسلام للناس وسائل العمل والكسب الشريف ، ولم يترك الباب مفتوحا ليدخل منه الجشعون والباحثون عن الثراء بأية وسيلة ، شريفة كانت أو غير شريفة ، بل وضع من القيود ما يجعل الكسب حلالا ، بعيدا عن الاستغلال والاحتكار والاستيلاء على مال الغير بدون حق . فالكسب الحلال هو ما جاء عن طريق أحلته الشريعة الإسلامية كالعمل والبيع والشراء ونحوها . أما الربا والرشوة والسرقة فقد بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم « ابن اللتبية » لجمع الزكاة فى إحدى المناطق ، فلما رجع لاحظ النبى صلى الله عليه وسلم أن الرجل يقدم قدرا مما جمعه من مال ، ويحتجز لنفسه قدرا آخر ، فسأله النبى عن ذلك فأجابه : بأنه يقدم ما جمعه للزكاة ، ويحتجز لنفسه ما أهدى إليه .

عندئذ غضب الرسول وصعد المنبر ، وخطب المسلمين متعجبا مما يفعله بعض الولاة من قبول الهبات والعطايا والهدايا ، مع أنهم لو بقوا فى بيوتهم لن يقدم لهم أحدا شيئا . إن قبولهم الهبات والعطايا والهدايا خيانة للمسلمين ، ثم يقسم عليه الصلاة والسلام ، إن من يفعل ذلك فضحه الله يوم القيامة على رءوس الأشهاد(١) .

---

(١) على ملأ وجمع من الناس .

وعندئذ يزداد غضب الرسول عليه الصلاة والسلام ، ورفع يديه وهو يقول : ألا قد بلغت . . . ألا قد بلغت . . . ألا قد بلغت .

وهذه الحادثة نعدها بداية لقانون « من أين لك هذا » .

من هذه القصة نرى أن استغلال الوالى أو الحاكم لمال الشعب بأخذ هدية أو رشوه أو سمسرة جريمة كبرى لما يترتب على ذلك من ضياع مال الدولة وشراء الذمم وظلم الناس ، ولما يؤدى إليه ذلك من فقد الثقة وخلق الأحقاد واضطراب أمور الدولة . وهذا بدوره يؤدى إلى أوخم العواقب فى الدنيا والآخرة .

• وكان عمر بن الخطاب يحصى أموال ولاته وعماله قبل ولايتهم ، ليحاسبهم على ما زاد بعدها . ومن تعلل منهم بالتجارة كان لا يقبل دعواه .

ولهذا عمل الولاة والحكام فى عهد النبى والخلفاء الراشدين بالهدى النبوى . وفيما يلى صورة لنزاهة الولاة والحكام وحرصهم على أموال الدولة فى هذا العهد ، ليكونوا قدوة حسنة ، لمن كانوا يعملون معهم أو تحت قيادتهم . من هذه الأمثلة ما يحكى عن « عمير بن سعيد »

كان عمير بن سعيد واليا على حمص أيام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، وبعد عام من ولايته طلبه أمير المؤمنين ليسأله عن أمور ولايته .

وقدم عمير بن سعد من حمص إلى المدينة ، على دابة ، بلا خدم أو أتباع ، ولو نه أراد غير ذلك لقدر عليه .

دخل عمير على عمر بن الخطاب فى ملبسه الخشن ، وخفيه الباليين ، وفى يده عكازته ، وعلى ظهره قصعته ومزوده[1] ، وعندما سلم على أمير المؤمنين دهش من مرآه ، وقال له :

---

(١) مزودة : وعاء الزاد .

— ما بك يا عمير ؟ . . هل حل الجدب بولايتك ؟

فقال عمير :

— ولم تظن ذلك يا أمير المؤمنين ؟

قال عمر :

لأن مرآك يدل على ذلك .

قال عمير :

وما الذى أدهشك من مرآى ؟ . . وقد جئت إليك أحمل الدنيا كلها

ابتسم عمر ، وقال :

— وماذا معك من الدنيا ؟

قال عمير بن سعد :

— هذه عصاى أتوكأ عليها . . . وأسوق بها جملى .

وعاد عمر بن الخطاب يقول :

— وماذا عندك أيضا ؟

قال عمير :

وهذه قصعتى أتوضأ فيها . . . وأغسل وجهى ورأسى ، وفى هذا المزود أحمل طعامى .

ولما سمع عمر حديث عمير اغرورقت عيناه ، ثم بكى ، فدهش عمير ، وقال :

— ماذا يبكيك يا أمير المؤمنين ؟ . . . لم يكن معى شىء غير هذا ، فأحدثك عنه ، أو أطلعك عليه .

كان عمر بن الخطاب يسمع كلام عمير ، ولا يستطيع أن يجيب .

ومشى يبكى إلى قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان على مقربة منه ، ولما بلغه ، ووقف عنده ، قال عمر :

— اللهم اجعلنى من الراغبين فى الآخرة والزاهدين فى الدنيا :

وعاد عمر بن الخطاب إلى عمير بن سعد ، وجلس وقال :

— ماذا فعلت فى أمور ولايتك ؟

فقال عمير :

أخذت الزكاة من أهل الزكاة ، وقبضت الجزية من أهل الجزية .

قال عمر :

وما الذى فعلته بها ؟

قال عمير :

قسمتها بين الفقراء والمساكين وأبناء السبيل .

قال عمر :

وماذا بقى عندك ؟

قال عمير :

والله يا أمير المؤمنين لو بقى عندى شىء لأتيتك به .

قال عمر :

وكيف حال المسلمين وأهل الذمة ؟

قال عمير :

أسأل الله أن يكون ظنى حقاً ، لقد تركتهم وهم جميعاً راضون ، ليس لأحد منهم حاجة ولا مظلمة .

قال عمر :

قد عرفت ذلك من قبل ، فأردت أن أستوثق منك .

عد يا عمير إلى عملك راشداً .

قال عمير :

أستأذنك يا أمير المؤمنين أن أزور أهلي وأقضي بينهم بضعة أيام .

قال عمر :

لك ذاك .

ذهب عمير إلى أهله بعيداً عن المدينة ، ولم يكن أحد منهم يعلم بمقدمه ، فتلقته زوجته في شوق ، وقابله أبناؤه في لهفة ، وكان هو مثلهم شوقاً ولهفة .

— ونظرت زوجته إليه ، وقالت :

— لقد تركتنا يا عمير بحال خيراً من حالك هذه . . . ما الكساء القديم وهذا الرداء البالي ؟ ! . . وما هذه النعل التي تكاد لا تستر قدمك ؟ ! . . ألم يكن في ولايتك مال . . . وأنت الوالي ؟ ! . .

قال عمير :

— وهل كان حكم الولاية مغنما ؟

وقالت زوجته :

— ما قصدت ذلك . . . ولكن أين عطاؤك[1] ؟ وفيم كنت تنفقه ؟

قال لها :

أنفقه في سبيل الله ، فاشتريت آخرتي بدنياي .

---

(١) عطاؤك : راتبك وما خصص لك .

فاغتاظت زوجته نائلة ، وقالت :

ألسنا أحق بمالك من الذين أخذوه ؟

قال لها :

عندكم ما يكفيكم . . أما أولئك فلا يملكون شيئا .

وعندئذ جاء ولده الصغير ، وجلس على حجره ، وقال :

— أين الهدية التى جئت بها إلى ؟

فتبسم عمير وقال :

— نسيتها هذه المرة . . . وسأحضرها لك فى المرة القادمة .

فقالت زوجته نائلة :

— وهل عشنا إلى المرة القادمة ؟

فقال عمير :

— إن عشنا جاءت الهدية .

فقالت الزوجة فى ألم وضجر :

— أف من أحوالك يا عمير ، إنك لقاس على نفسك ، فلا تكن قاسياً على صغارك .

قال عمير :

— وإنى بهم لرحيم .

قالت :

— أية رحمة ؟ تؤثر بمالك من لا نعرف ، وتحول بين نفسك وزوجتك وولدك وبين ما أحل الله لك من المال ، كأنك لم تقرأ قول الله تعالى :

« قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق » ولم تسمع قوله تعالى : « وأنفقوا من طيبات ما كسبتم » .

فرد عليها بقوله :

لا ، يا نائلة ، لقد قرأت ذلك وفهمته . وليس فيما أتيت تحريم لكنك غافلة عن قوله تعالى : « ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيما وأسيرا » فقطبت جبينها وقالت :

— لكن جيراننا لا يفعلون ما تفعل .

فقال لها :

— وما لنا ولجيراننا ؟ لكل أناس فى حياتهم منزع .

قالت فى تهكم :

— لست أقدر على فهمك .

فقال لها فى صوت قوى :

— بل تقدرين ، لكن هواك مع الدنيا ، ومع متاعها الزائل . . . دعينا من كل هذا ، وأحضرى لنا طعاما .

قامت نائلة ، وأحضرت له طعاما من خبز الشعير مع بعض الزيت وقالت :

— هذا خير ما عندنا .

فقال : الحمد لله على نعمائه

وما هى إلا لحظات حتى كان رسول عمر بن الخطاب يقرع باب عمير ، فقد أراد أن يزداد من أمره ثقة ، فبعث رسولا من عنده اسمه « حبيب » وقال له :

— اختبر لى عمير بن سعد بهذه الدنانير المائة . . . انزل عنده ثلاثة أيام لترى حاله . . . فإن وجدته فى ضيق ، فادفع إليه مائة الدينار ، على أنها عطاء من بيت المال .

فلما قرع رسول أمير المؤمنين الباب أذن له . . . وأقام عند عمير ثلاثة أيام ، لم ير له طعاماً هو وأسرته إلا خبز الشعير وطعاماً مأدوماً بالزيت .

وكان حبيب لم يأخذ نفسه بمثل هذا العيش الخشن ثلاثة أيام متوالية ، فضاق بالضيافة أيما ضيق ، وكاد يعود إلى عمر قبل أن يكمل الأيام الثلاثة ، وأحس كأنما عمر بن الخطاب قصد من إرساله إلى عمير أن يعاقبه أو يمرنه على الزهد .

لذلك ما كاد اليوم الثالث يقضى حتى قال لعمير : هذه مائة دينار بعثنى بها إليك عمر عطاء لك من بيت المال ، فقد ساءه حالك التى رأى ، وهو يحب أن توسع بها على عيالك .

فقال عمير :

— يا نائلة . أحضرى أحدث ثوب عندك .

وأحضرت نائلة . . . هـذا الثوب . . . فإذا بالثقوب فى كل موضع ، وقالت :

— ها هو ذا ثوبى يا أبا زيد . . . عمر عندى عشرة أعوام . . . ألست زوجة مدبرة ؟

وما كان من عمير إلا أن أخذ هذا الثوب وقطعه قطعا — والكل ينظر إليه . . . وحول كل قطعة إلى صرة ، ووضع فى كل واحدة منها بضعة دنانير . هذه الصرة لفلان الفقير ، وهذه صرة لفلان . . . وهذه ثالثة لفلان .

استأذن «حبيب من عمير» ورجع إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب . وقال :

جئتك من عند أشرف الناس . . . جئتك من عند أنبل الولاة . . . . كان فى مقدوره أن يأخذ أى شىء . . . ولكنه كان عفيفاً ، عاش عيشة التقشف والزهد . . . لقد عرضت عليه المائة دينار . . . فوزعها على الفقراء من حوله .

فرفع عمر بن الخطاب يده إلى السماء وقال :

— الحمد لله أن جعل للمسلمين ولاة وحكاما مثل عميرة ابن سعد .

* * *

مال الدولة ليس ملكا لأحد ، وليس وقفا على أحد بعينه ، وإنما هو ملك لك وملك لى ، وملك للمواطنين جميعا ، وملك للشعب كله . لك فيه نصيب ولى فيه نصيب ، ولكل فرد من أفراد الشعب من غير استثناء نصيب فيه ، ولهذا كان من الضرورى أن نتعاون فى المحافظة عليه فالاعتداء عليه اعتداء على الشعب كله .

وعندما نصبح مسئولين عن مال الدولة يجب علينا أن نحافظ على أرض الدولة ومالها ومرافقها ، فلا تغتصب أرضا من غير حق ، ولا تنهب مالا من غير حق ، ولا تستغل مرافق الدولة لمصالحنا الخاصة ، ولا نهمل فى المحافظة عليها ، ولنا من خلفائنا وحكامنا المسلمين السابقين خير قدوة نسير على نهجها ولهم فى ذلك قصص ومواقف مشرفة فنذكر بعضها فيما يلى :

كان عمر بن الخطاب شديد الخوف من محاسبة الله له عن مال المسلمين يوم القيامة ، فكان يقول :

— لو ماتت شاة على أرض المسلمين لظننت أن الله سائلى عنها يوم القيامة .

وفى عام المجاعة سوى بينه وبين الناس جميعا ، فكان يجوع كما يجوعون ، واقسم ألا يذوق لحما ولا لبنا حتى يذوقه كل الناس . كان يستطيع أن ينفق المال ويجد لنفسه ألف عذر ، ولكنه لم يفعل ذلك .

ورأى عمر بن الخطاب أن إبل ابنه قد سمنت وكونت لحما وشحما ، فأخذ منه نصف أرباحها ، وضمه إلى بيت المال ، لأنه خاف أن يكون قد أرعاها فى خير المراعى ، وتخلى عنها الناس له ، لأنه ابن الخليفة .

* * *

أرسلت ابنة على بن أبى طالب إلى خازن بيت المال على ابن أبى رافع تقول له :

بلغنى أن فى بيت المال عقدا نادرا ثمينا من اللؤلؤ . . فهل أستطيع أخذه لأتزين به فى يوم العيد ؟

فأرسله إليها بعد أن تعهدت بإعادته بعد ثلاثة أيام .

ولما رأى أمير المؤمنين على بن أبى طالب عقد اللؤلؤ فى جيدها[1] عرفه ، فقال لها :

من أين جاء إليك هذا العقد ؟

فأخبرته بأنها أخذته من خازن بيت المال ، لتتزين به يوم العيد ثم ترده . فأرسل أمير المؤمنين يطلب على بن أبى رافع ، ولما قدم قال له :

---

(١) جيدها : عنقها

تخون مال المسلمين يا بن أبي رافع ؟

فرد قائلا :

معاذ الله أن أخون المسلمين يا أمير المؤمنين .

فقال له :

لقد أعرت العقد الذى فى بيت المال بغير إذنى ورضاى . .

فعاد ابن أبي رافع يقول :

لقد أخذته لترده سالما إلى موضعه بعد ثلاثة أيام .

فقال له على بن أبي طالب :

رده من يومك ، وإياك أن تعود لمثل هذا العمل ، ولو أن ابنتى أخذت العقد ، دون أن تتعهد برده ، لكانت أول هاشمية قطعت يدها فى سرقة .

* * *

وكان عمر بن عبد العزيز من الخلفاء الذين عرفوا بالمحافظة على مال الدولة ، ففى ذات مساء دخل عليه رسول أحد الولاة ، فأمر عمر بإحضار المصباح الكبير ، وأخذ يسأل هذا الرسول عن البلاد والرعية ، وعن شئون العدل والنظام والأمن ، فأنبأه الرسول بجميع ما يعلم .

ولما بدأ عمر يتحدث عن شئونه الخاصة ، أطفأ المصباح الكبير ، ودعا بسراج لا يكاد يضىء ، فقال له رسول الوالى الذى كان يتحدث معه :

لم هذا يا أمير المؤمنين ؟

فأجابه :

إن المصباح الكبير يضيء من مال المسلمين وكنت اسألك فى أمورهم ، فكان المصباح يضيء بين يدى فيما يصلحهم ، وهو لهم ، فلما صرت لشأنى وأمر عيالى أطفأت نوره .

وهذا ما حمل الولاة على أن يكونوا قدوة حسنة فى المحافظة على موال المسلمين فى عهده .

وبهذا ازدهرت الدولة على أيدى أولئك الخلفاء ، واتسع نفوذها ، وامتدت هيبتها إلى مشارق الأرض ومغاربها .

موضوعات الكتاب

رقم الصفحة

رقم الصفحة



رقم الايداع بدار الكتب
٦٠١٠ لسنة ١٩٧٨

xxxxxxxxxxxx

مطابع الرجوى
القاهرة - عابدين
ت ٩٠٠٤٩٨ / ٩٢٤٢٦٨

للمؤلف

كتب دينية وأدبية

* عظمة الرسول
* نبى الاسلام فى مرآة الفكر الغربى
* حياة محمد
* فن القراءة

لماذا نقرأ ؟ ماذا نقرأ ؟ كيف نقرأ ؟

* فن الحديث
* فن الصداقة

يطلب من دار الفكر العربى بالقاهرة
شارع جواد حسنى

طبعت بمطابع مؤسسة روز اليوسف